فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والستين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، وصاحب مصر السلطان الملك الناصر يوسف بن أيوب، وصاحب الشام وحلب وغيرهما الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، غير أنه توفي إلى رحمة الله في هذه السنة، على مانذكره عن قريب ان شاء الله تعالى.

فلنبدأ أولا بما جريات صلاح الدين ثم ماجريات نور الدين، ثم نذكر وفاته ان شاء الله.

ذكر ماجريات صلاح الدين:

منها أنه ارسل أخاه شمس الدولة تورانشاه بن أيوب إلى اليمن، وكان صلاح الدين قد أقطعه قوص وأعمالها وارتفاعها مائة ألف دينار، ثم تجهز منها وسافر، ووصل زبيد، وقتل ابن المهدي صاحبها، وكان يلقب أمير المؤمنين، فلما قتله سير نواب الحصون مفاتيحها إليه، وهي واحد وأربعون حصنا.

وقال العماد: وفي رجب توجه توران شاه أكبر أخوة صلاح الدين الى اليمن فملكها، وكان يحثه على المسير إليها عمارة اليمني، شاعر القصر، وكان كثير المدح لتوران شاه، فتجهز وسار إلى مكة، ثم الى زبيد فملكها، وقبض على الخارجي بها وأهلكه نائبه سيف الدولة مبارك بن منقذ، ومضى إلى عدن فأخذها واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي، وفتح حصن تعز وغيره من القلاع.

وقال ابن شداد: ولما كان سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قوة عسكره، وكثرة عدد أخوته وقوة بأسهم، وكان بلغه ان باليمن انسانا

استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه، يسمى عبد النبي بن مهدي، ويزعم انه ينتشر ملكه الى الارض كلها، فاستتب أمره، فرأى ان يسير إليها اخاه الاكبر الملك المعظم توران شاه، وكان كريما اريحيا، حسن الاخلاق، فمضى اليها، وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها، وكان اخو هذا الخارجي باليمن قبله.

وقال ابن أبي طي، وكان سبب خروج شمس الدولة الى اليمن انه كان كريما جوادا، وكان اقطاعه بمصر لايقوم بفتوته، ولاينهض بمروءته، وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد الى مصر ومدح اصحابها، فلما زالت دولتهم انضوى الى شمس الدولة ومدحه، وكان اذا خلا به يصف له بلاد اليمن وكثرة اموالها، وضعف من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها، ومن جملة شعره قوله في القصيدة التي أولها:

العلم مذ كان محتاجا الى العلم
وشفرة السيف تستغني عن القلم
كم تترك البيض في الاجفان ظامئة
الى الموارد في الاعناق والقمم
امامك الفتح من شام ومن يمن
فلا تردر وس الخيل باللجم
فعمك الملك المنصور سومها
من الفرات الى مصر بلا سأم

الأبيات:

وله قصيدة أخرى منها قوله:

أفاتح أرض النيل وهي منيعة
على كل راج فتحها ومؤمل

متى توقد النار التي أنت قادح
بغمدان مشبوباً سناها بمندل
وتفتح ما بين الحصين وأبين
وصنعاء من حصن حصين ومعقل

الأبيات:

وقال ابن أبي طي: ووافق ذلك أن كاتبه رجل من أهل اليمن يقال له هاشم بن غانم، وأطمعه لان صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدى على هذا الشريف هاشم، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن، فأجابوه وتجهز، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له وأطلق له مغل قوص سنة، وزوده فوق ماكان في نفسه، وأصحبه جماعة من الامراء، ومقدار الف فارس خارجا عمن سيره من حلقته، وسار في البر والبحر: في البر العساكر وفي البحر الاسطول يحمل الازواد والعدد والآلات، فوصل الى مكة شرفها الله تعالى، فدخلها زائرا، ثم خرج متوجها منها الى اليمن، فوصل زبيد في أول شوال، فنزل عليها، ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني وجمع الاشراف بنو سليمان في جمع جم وعدد كثير، فهجم زبيد وتسلمها واحتوى على مافيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي أخي على بن مهدي، ثم رحل الى عدن وفي صحبته ابن مهدي ففتحها عنوة وولاها عز الدين بن الزنجيلي، ثم سار الى المخلاف وتسلم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي كتعز وغيرها، وسار الى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها، فأحرقت صنعاء، فدخلها شمس الدولة، فلم يجد فيها الا شيخا او امرأة عجوزا، فأقام بها ثمانية ايام، ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة، فرجع الى زبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبي بن مهدي، وكان شمس الدولة قد استناب بزبيد الامير سيف الدولة المبارك بن منقذ، وأمره بحمله، فلما بعد شمس الدولة خاف ابن منقذ فساد أمره، فرأى المصلحة في قتله فقتله ابن منقذ بزبيد،

فلما بلغ شمس الدولة قتله استصوبه، ولما دخل شمس الدولة في زبيد انفذ اليه صاحب الحمام[١٥] وصالحه هو وباقي الملوك على اداء المال، ثم تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها وكتب بذلك الى اخيه الملك الناصر صلاح الدين، فارسل الى نور الدين يخبر بذلك، فأرسل نور الدين مهذب الدين أبا الحسن علي بن عيسى النقاش بالبشارة بذلك الى بغداد.

وذكر العماد الأمير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ المستناب ووصفه بأنه من الكفاة الرماة والدهاة وذوي الآراء، وانه فاضل من أهل بيت فضل، كتب الى العماد من شعره:

لما نزلت الدير قلت لصاحبي
قم فاخطب الصهباء من شماسه
فأتى وفي يمناه كأس خلتها
مقبوسه من نبراسه
وكان ما في كاسه من خده
وكأنما في خده من كاسه
وكأن لذة طعمها من ريقه
وأريجها الفياح من أنفاسه
لم أنس ليلة شربها بفنائه
إذ بات يجلوها على جلاسه
إذ قام يسقينا المدام وكلما
عاتبته رد الجواب براسه

ومدحه ابو الحسن بن الذروي المصري بقصيدة غراء ذالية ما أظن انه نظم على قافية الذال ارق منها لفظا وأروق معنى، اولها:

لك الخير عرج على ربعهم فذي
ربوع يفوح المسك من عرفها الشذي
مبارك عيس الوفد باب مبارك
وهل منقذ القصاد غير ابن منقذ

وفي المرآة: لما سار شمس الدولة الى اليمن، وكان أعيانها قد كتبوا الى صلاح الدين يسألونه ان يبعث اليهم بعض أهله، فلما وصل شمس الدولة الى مكة صعد صاحبها الى أبي قبيس فتحصن فيه بقلعة بناها عليه، وأغلق باب الكعبة، وأخذ المفاتيح، فجاء شمس الدولة فطاف بالبيت وصلى ركعتين، وصعد الى باب الكعبة وقال: اللهم ان كنت تعلم اني جئت الى هذه البلاد لاصلاح العباد وتمهيدها فيسر علي فتح الباب، وان كنت تعلم اني جئت لغير ذلك فلا تفتحه، ومد يده فجذب القفل بها، فدخل شمس الدولة الى البيت وصلى ودعا، فلما بلغ امير مكة ذلك نزل الى خدمته وحمل المفاتيح واعتذر وقال: خفت منك، والآن فانا تحت طاعتك، فقال: إذا اخذت منك مفاتيح مكة فلمن اعطيها؟ ثم خلع عليه وعلى أصحابه وطيب قلوبهم وسار الى اليمن، فانهزم عبد النبي بين يديه الى زبيد، وكان أبوه المسمى بالمهدي قد فتح البلاد، وقتل خلقا كثيرا، وشق بطون الحوامل، وذبح الاطفال على صدور امهاتهم، وكان يرى رأي القرامطة، ويظهر انه داعية لصاحب مصر، ويتستر بالاسلام، وكان قد مات قبل دخول شمس الدولة اليمن بسنين وملك بعده ولده عبد النبي، ففعل باليمن أشد مما فعله أبوه وسبى نساءهم واستعبدهم، وكان أبوه لما مات بنى عليه قبة عظيمة وصفح حيطانها بالذهب الاحمر والجواهر ظاهرا وباطنا بحيث لم يعمل في الدنيا مثلها، وجعل فيها قناديل الذهب، وستور الحرير، ومنع أهل اليمن من زبيد الى حضرموت ان يحجوا الى الكعبة، وامرهم بالحج الى قبر أبيه، وكانوا يحملون اليه من الاموال كل سنة ما لايحد ولايوصف ويطوفون حوله مثلما يطاف بالكعبة، ومن لم يحمل مالا قتله، وكانوا يقصدونه من البحر فاجتمع فيه أموال عظيمة، وأقام عبد النبي على الظلم والفسق والفجور وذبح الاطفال وسفك الدماء وسبى النساء الى ان دخل شمس الدولة الى اليمن، وجاء الى زبيد، فيقال انه حصر عبد النبي فيها وأمنه وقيده وقتله، ويقال انه انهزم بين يديه وجاء الى قبة ابيه فهدمها، وأخذ ماكان

فيها من المال والجواهر والفضة، وكان على ستمائة جمل ونبش القبر وأحرق عظام أبيه وذراها في الريح ومضى الى صنعاء، فحلف شمس الدولة ان لاينتهي عنه حتى يقتله ويحرقه كما فعل بأبيه، وصار خلفه فرجع الى زبيد، وعاد شمس الدولة اليها فظفر به وأخذ ماكان معه وقتله وصلبه وحرقه كما فعل بعظام أبيه.

وفي تاريخ ابن كثير: ولما وصل شمس الدولة الى زبيد خرج اليه عبد النبي فقاتله فانهزم، وأسر شمس الدولة، وأسر زوجته الحرة وكانت ذات أموال جزيلة، فاستقرها على أشياء جزيلة وذخائر جليلة، ونهب الجيش زبيد، ثم سار الى عدن فقاتله صاحبها ناشر فهزمه توران شاه وأخذ البلد بيسر ومنع الجيش من نهبها وقال: ماجئنا لنخرب البلاد، وانما جئنا لعمارتهاوملكها، ثم سار في الناس سيرة حسنة عادلة فأحبوه، واستوثق له ملك اليمن وخطب فيها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وقتل الداعي المسمى بعبد النبي.

ومنها ارسال صلاح الدين بالهدايا الى نور الدين رحمه الله.

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين، وهو الموفق ابن القيسراني، واجتمع بالملك الناصر، وانهى اليه رسالة نور الدين، وطالبه بحساب جميع ماحصل وارتفع اليه من ارتفاع البلاد، فصعب ذلك على السلطان واراد شق العصا، لولا ماثاب اليه من السكينة، ثم امر النواب بعمل الحساب وعرضه على ابن القيسراني، واراه جريدة الاجناد بمبلغ اقطاع وكميات جامكيتهم ورواتب نفقاتهم، فلما حصل عنده جميع ذلك ارسل معه هدية الى نور الدين على يد الفقيه عيسى.

قال: ووقفت على برنامج شرحها بخط الموفق ابن القيسراني، وهي خمس ختمات: احداها ختمة ثلاثون جزءا مغشاة بأطلس أزرق مضببة

بصفائح ذهب وعليها اقفال ذهب مكتوبة بذهب بخط يانس، وختمه بخط راشد مغشاة بديباج فسستقي عشرة اجزاء، وختمه بخط ابن البواب، في مجلد واحد بقفل ذهب، و ختمه بخط مهلهل جزء واحد، وختمه بخط الحاكم البغدادي، وثلاثة احجار بلخش: حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالا، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالا، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف، وست قصبات زمرد: قصبة وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث، وقصبة وزنها مثقالان ونصف وقصبة وزنها ثلاثة عشر مثقالا وثلث وربع وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل، وحجر وزنه سبعة مثاقيل، وحجر أزرق وزنه ست وخمسون مثقالا وسدس ومائة عقد حوهر مختومة وزنها ثمانمائة وسبعون مثقالا، وقارورة دهن بلسان، وعشرون قطعة بلور، وقطعة جزع، وذكر تفصيلها ابريق يشم، طشت يشم، سقرق مذهب، صحون صيني وزبادي وسكارج وأربعون قطعة عود طيب: قطعتين كبار كرتان وزن احداهما ثلاثون رطلا بالمصري، والاخرى واحد وعشرون رطلا، ومائة ثوب أطلس وأربعة وعشرون بقيارا مذهبة، وأربعة وعشرون ثوبا حريري، وأربعة وعشرون ثوبا من الوشي حريرية بيض. وحلة فلفلي مذهبة، وحلة مرايش صفراء مذهبة. وذكر غير ذلك انواعا من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون الف دينار مصرية، وعدة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئا كثيرا من السلاح على اختلاف ضروبه.

قال: وخرجوابهذه الهدية فلم تصل الى نور الدين لانه اتصل بهم وفاته، فمنها ماأعيد ومنها مااستهلك لان الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعا عليهم من نهبهم واستبدا بأكثرها، وقيل انها وصلت جميعها الى السلطان لانه اتصل به خبر موت نور الدين فأنفذ من ردها.

قال: وحدثني من شاهد هذه الهدية انه كان معها عشرة صناديق مال لايعلم مقداره.

ومنها أن صلاح الدين صلب في رمضان منها جماعة من أعيان المصريين، فإنهم قصدوا الوثوب عليه، واعادة الدولة العلوية، فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم، فمنهم: عبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس، وداعي الدعاة، وعمارة بن علي اليمني الشاعر الفقيه الشافعي.

وفي تاريخ ابن كثير: اجتمع نجم الدين عمارة البشاعر اليمني الفقيه الشافعي مع جماعة من رؤوس الدولة الفاطمية الذين كانوا حكاما، فاتفقوا فيما بينهم أن يعيدوا الدولة الفاطمية، وكتبوا الى الافرنج يستدعونهم اليهم، وعينوا خليفة من ذرية الفاطميين، ووزيرا وامراء في غيبة السلطان صلاح الدين ببلاد الكرك، ثم اتفق مجيئه، وحرض عمارة اليمني شمس الدولة تورانشاه على المصير الى اليمن ليخف الجيش ويضعف عن مقاومة الفرنج إذا قدموا لنصرة الفاطميين، فخرج تورانشاه، ولم يخرج عمارة الى اليمن بل أقام بالقاهرة يفيض في هذا الحديث ويداخل المتكلمين فيه، وكان من أكابر الدعاة اليه المحرضين عليه، هذا وقد أدخلوا معهم في هذا الامر بعض من ينسب الى الملك الناصر، وذلك من قلة عقلهم وكثرة جهلهم، فخانهم احوج ماكانوا اليه وهو الشيخ زين الدين علي بن نجا الواعظ، جاء الى السلطان الملك الناصر فأخبره بما تمالأ القوم عليه، وبما انتهى أمرهم اليه، فأطلق له السلطان اموالا جزيلة، وافاض عليه حللا جميلة، ثم استدعاهم السلطان واحدا واحدا فقررهم فأقروا له بذلك فاعتقلهم، ثم استفتى الفقهاء في أمرهم فأفتوه بقتلهم وتبدد شملهم، فعند ذلك امر بصلب رؤوسهم وأعيانهم دون اتباعهم وغلمانهم، وأمر بنفي من بقي من جيش العبيديين الى اقاصي البلاد، وأفرد ذرية العاضد وأهل بيته في دار، فلا يصل اليهم اصلاح ولافساد، وأجرى عليهم من الارزاق كفايتهم، وقد كان عمارة معاديا للقاضي الفاضل، فلما احضر بين يدي السلطان قام القاضي الفاضل فاجتمع بالسلطان ليشفع فيه، فتوهم انه يكلمه فيه، فقال: يامولانا السلطان لاتسمع منه، فغضب القاضي الفاضل ونهض

وخرج من القصر، فقال لـه السلطان: انه كان قد شفع فيـك، فندم ندما عظيما ولما ذهب به ليصلب اجتاز بدار القاضي، فطلبه فتغيب عنه فأنشد عند ذلك:

عبـــدالـــرحيـــم قـــداحتجـــب
ان الخلاص هـــــو العجـــــب(١٦)

وفي تاريـخ الدولتين: وكان صلـب المذكوريـن يوم السبت ثـاني شهر رمضـان، وكان الـذيـن صلبوا منهـم: الفضـل بـن كامـل بـن الكامـل القـاضي، وابن عبـد القوي الـداعي، والعـويـرس، وكان قـد تولى ديـوان النظر ثم القضاء بعد ذلك، وشهريـا كاتب السر، وعبد الصمد أحد امراء المصريين، ونجـاح الحمامـي، ورجـل منجـم نصراني أرمنـي قـال لهم: ان أمرهم يتم بطريق علم النجوم، وعمارة اليمني الشاعر.

قال العماد في البرق: ووصل من صلاح الديـن يوم وفاه نور الدين إلى دمشـق كتـاب يتضمـن هـذه القضيـة، وهو بخـط ابـن قـريـش، يعنـي المرتضى.

وفي قضية عمارة يقول العلامة تـاج الدين الكند ي رحمه الله، قال أبو شامة: نقلته من خطه:

عمارة في الاســـلام أبـــدى خيـــانـــة
وبـــايـــع فيهـــا بيعـــة وصليبـــا
وأمســـى شريـــك الشرك في بغـــض أحمد
فـــأصبـــح في حـــب الصليـــب صليبـــا
وكـــان خبيـــث الملتقـــى إن عجمتـــه
تجد منـــه عـــودا في النفـــاق صليبـــا
سيلقـــى غـــدا مـــا كـــان يسعـــى لأجلـــه
ويسقـــى صـــديـــدا في لظـــى وصليبـــا

قلت: والصليب الأول صليب النصارى، والثاني بمعنى مصلوب، والثالث من الصلابة، والرابع هودك العظام، وقيل هو الصديد أي يسقى مايسيل من أهل النار، نعوذ بالله منها.

وقال ابن أبي طي: وكان داعي الدعاة يعلم بدفائن القصر، فعوقب ليعلم بها فامتنع من ذلك، فمات واندرست.

ذكر ماجريات نور الدين رحمه الله:

منها: أن نور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش وغيرها، ومليح ابن لاون متملك الأرمن في خدمته، ووصل الى خدمته أيضا ضياء الدين مسعود بن قفجاق، صاحب ملطية، وكان في خدمته أيضاً الأمراء من البلاد، وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم من الفرات، فبذل له صاحبهاخمسين ألف دينار على سبيل الجزية ثم عاد إلى حلب، وأراد ان يسرع الى دمشق، فتوقف لمرض سريته، فتصدق عنها بألوف، والتزم لله في شفائها بنذور ووقوف، ثم سيرها في محفة تحمل على أيدي الرجال، وتأخر نور الدين جريدة مع عدة من مماليكه، ثم سار على طريق سلمية، فجاء الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران، فثنى إلى الجهاد العنان، وسمع الفرنج به فتفرقوا، ودخل دمشق.

ومنها أنه في جمادى الأولى أبطل فريضة الأتبان، وكتب بذلك منشورا وعلامته بخطه «الحمد لله» يقول فيه: «وبعد فإن سنتنا العادلة، وسير آبائنا الزاهرة، وعوائد دولتنا القاهرة إشاعة المعروف، واغاثة الملهوف. وانصاف المظلوم، واعفاء رسم ماسنه الظالمون من جائرات الرسوم، ومانزال نجدد للرعية رسماً من الاحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون في حياضه، ونستقري أعمال بلادنا المحروسة، ونصفيها من الشبه والشوائب، ونلحق مانعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه

من المكوس والضرائب تقرباً إلى الله تعالى الكافل لنا بشيوع المواهب، وبلوغ المطالب، وقد أطلقنا جميع ماجرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة وضياع الغوطة والمرج وجبل سنير، وقصر حجاج والشاغور والعقيبة ومزارعها الجارية في الأملاك، وجميع مايقسط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفرناه على أربابه طلبا لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهربا من انتقامه وأليم عقابه، وسبيل الثواب اطلاق ذلك على الدوام وتعفية آثاره، والاستغفار من أوزاره والاحتراز من التدنس بأوضاره، وابطال رسمه من الدواوين لاستقبال سنة تسع وستين ومابعدها على تعاقب الايام والسنين».

ومنها أن نور الدين تكلف في هذه السنة بافادة الألطاف والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصدقات، وتوفير النفقات، وكسوة نسوة الأيامى في أيامها، واغناء فقراء الرعية وانجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذل وعون الضعفاء، وتقوية المقترين بعدله.

ذكر وفاة نور الدين: والكلام فيه على أنواع.

الأول: في ترجمته.

هو السلطان الجليل الملك العادل، أبو الغنائم نور الدين محمود بن الملك الأتابك، قسيم الدولة عماد الدين أبي سعيد زنكي ابن الملك الأتابك أقسنقر، الملقب بقسيم الدولة، أيضاً المعروف بالحاجب، ابن عبد الله، وكان آقسنقر مملوك السلطان ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان السلجوقي، كما ذكرنا، فنور الدين أيضا تركي سلجوقي ولاء.

ولد قبل طلوع الشمس يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة احدى

عشرة وخمسمائة بحلب، ونشأ في كفالة والده صاحب حلب والموصل وغيرها من البلدان الكثيرة، وتعلم الفروسية والرمي.

الثاني: في ألقابه.

السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط نور الدين، وعدته ركن الدين، وسيفه قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومقرها، ورضي الامامة وأمرها، فخر الملة ومفتخرها، شمس المعالي وفلكها، سيد ملوك الشرق والغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين.

ثم إن نور الدين أسقط الجميع قبل موته، وقال: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي.

وروي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني يأمره أن يكتب له صورة مايدعى له على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب، ولئلا يقول ماليس فيه، فكتب ابن القيسراني كلاما ودعا له فيه، ثم قال: وأرى أن يقال على المنبر: اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لاعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آقسنقر، ناصر أمير المؤمنين، فإن هذا مايدخله كذب ولامزيد، فكتب نور الدين على رأسها بخطه: مقصودي أن لايكذب على المنبر، أنا بخلاف كل مايقال، أفرح بما لاأعمل.

الثالث: في صفته:

قال ابن خلكان: كان أسمر اللون، طويل القامة، حسن الصورة، ليس بوجهه شعر سوى ذقنه .

وقال ابـن كثير: كان حلو العينين، واسـع الجبين، تركي الشكـل، ليس له لحية الا في حنكه.

وفي المرآة: وكان معتـدل القامة، واسـع الجبهة بلحيته شعـرات خفيفة في حنكه، ونشأ على الخير والصلاح وقراءة القرآن والعبادة.

الرابع: في سيرته.

كان ملكـاً مهيباً متواضعـاً، عليه جلالة نـور الاسلام، وتعظيم قـواعد الشرع.

وقال ابن خلكان: وكان ملكاً عـادلاً، زاهداً، عابداً، ورعاً ، مستمسكاً بالشريعة، مائلاً إلى أهل الخير، مجاهدا في سبيل الله.

وفي تـاريـخ الـدولتين: ولقـد كـان مـن أوليـاء اللـه المؤمنين، وعبـاده الصـالحين، وجمع اللـه لـه مـن العقـل المتين والـرأي الثـاقـب الـرصين، والاقتداء بسيرة السلـف الماضيين، والتشبه بـالعلماء الصالحين والاصغـاء لسيرة مـن سلف منهـم في حسن سمتهـم، والاتبـاع لهم في حفظ مـالهم ودقتهم، حتى روى في حـديث المصطفى صلى الله عليـه وسلم وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعـه وجمعه حرصا منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحـديث، رجـاء أن يكون ممن حفـظ على الأمة أربعين حـديثا، كما جاء في الحديث.

فمن رآه شاهد مـن جلال السلطنة وهيبة الملك مايبهـره، فإذا فاوضه رأى من لطـافته وتـواضعه مـايحيره، يحب الصالحين ويـواخيهم، ويـزور مساكنهـم لحسن ظنـه فيهم، وإذا احتلم ممـاليكه أعتقهـم وزوج ذكرانهم بانـاثهم ورزقهم، ومتى تكـررت الشكاية إليـه من واحد من ولاتـه أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكايته، فمـن لم يرجع منهم إلى العدل قابله

باسقاط المنزله والعزل، فلما جمع الله لـه من شريف الخصال يسر له جميع مايقصده مـن الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقـلاع، ومكن له في البلدان والبقاع.

وفي تاريـخ ابن العميد: وكـان ملكاً عظيماً جليـلاً، عابداً سخيـاً كريماً صالحاً، معدوداً من الأبدال.

وفي تاريـخ ابن العميد: وكما اشتهـر من قلة ابتهـاجه بالشعـر لما علم من تزيد الشعراء، وهي طريقة عمـر بن عبد العزيز رضي الله عنه، زاهد الخلفاء.

قال يحيـى بن محمد الـوهراني، في مقامة لـه، وقد سئل في بغـداد عن نور الدين: هـو سهم للدولة سديد، وركن للخلافـة شديد. وأمين زاهد، وملـك مجاهد، تسـاعـده الافلاك، وتعضـده الجيـوش والاملاك، غير أنـه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيـل، وبالمحل الجدب للشاعر الاديب، فما يرزى ولايعـزى، وما لشـاعر ﴿عنده مـن نعمة تجزى﴾ [الليـل ١٩] واياه عنى أسامة بن منقذ بقوله:

سلطـاننـا زاهـد والنـاس قـد زهـدوا
فكـل على الخيرات منكمـش
أيـامـه مثـل شهـر الصـوم طـاهـرة
مـن المعـاصي وفيهـا الجوع والعطـش (١٧)

وقال صـاحب التـاريخ: ماكـان يبذل أمـوال المسلمين الا في الجهاد، ومايعود نفعه على العباد، وكان كما قيل في حـق عبد الله بن محيريز، وهو من سادات التابعين بـالشام، قال يعقوب بن الحافظ: حـدثنا ضمرة عن الشيباني قـال: كان ابـن الديلمي مـن أنصر الناس لأخوانـه، فذكـر ابن محيريز في مجلسـه، فقال رجل: كـان رجلاً بخيـلاً، فغضب ابن الـديلمي وقال: كـان جوادا حيث يحب اللـه، بخيلا حيـث تحبون، وأما شعـر ابن

منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في ليله الميلاد يمدح نور الدين:

في كـــل عـــام للبريـــة ليلـــة
فيهـــا يشـــب النـــار بـــالايقـــاد
لكـــن لنـــور الـــديـــن مـــن دون الـــورى
نـــاران نـــار قـــرى ونـــار جهـــاد
أبـــداً يصرفهـــا نـــداه وبـــأسـه
فـــالعـــام أجمع ليلـــة الميـــلاد
ملـــك لـــه في كـــل جيـــد منـــة
أبهى مـــن الأطـــواق في الأجيـــاد
أعلى الملـــوك يـــدا وأمنعهـــم حمى
وأنـــداهـــم كفـــاً ببـــذل تـــلاد
يعطـــي الجزيـــل مـــن النـــوال تبرعـــا
مـــن غير مســـألـــة ولا ميعـــاد
لازال في سعـــدوملـــك دائم
مـــادامـــت الـــدنيـــا بغير نفـــاد(١٨)

ولقد أكثر ابن منير وابن القيسراني والعماد الكاتب وغيرهم في مدح نور الدين بالكرم والجود وذلك كله يرد قول الوهراني وابن منقذ، على أن ابن منقذ قد رددنا شعره بشعره كما تراه، وإنما الشعراء وأكثر الناس كما قال الله في وصف قوم ﴿فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا﴾ في القرآن العظيم قوله: ﴿منها إذا هم يسخطون﴾ [التوبة ٥٨] وما كل وقت يتفق العطاء، ويفعل الله مايشاء.

الخامس: في شجاعته.

كان يقال: إنه لم ير على ظهر الفرس أحسن ولا أثبت منه، وكان حسن اللعب بالأكرة، وربما ضربها ثم يسوق وراءها ويأخذها من الهواء بيده ثم يرميها إلى آخر الميدان، ولم ير جو كانه يعلو على رأسه، ولايرى الجوكان في يده لان الكم ساتر لها، وكان شجاعا صبورا في الحرب

يضرب بـه المثل في ذلـك، وكان يقـول: قـد تعرضـت للشهادة غير مـرة، فقال لـه مرة الفقيـه قطب الـدين النيسـابوري: بـالله يـامولانـا لاتخاطر بنفسك، فـإنك لـو قتلت قتـل جميع مـن معك وأخـذت البلاد، فقـال: اسكت ياقطب الـدين، من هو محمود، ومن كـان يحفظ البلاد قبلي ﴿الله الذي لاإله إلا هو﴾ [الحشر ٢٢] قال: فبكى من حضر.

وكـان إذا حضر الحرب شـد تركـاشين، وحمل قـوسين، وبـاشر الحرب بنفسـه، وشجاعتـه ظاهـرة في غزواتـه، وفتـوحاتـه على ماذكـر في السنين المتقدمة.

السادس: في ورعه وزهده.

وقال ابـن الأثير في تاريخه: قد طـالعت تـواريخ الملوك المتقـدمين من قبل الاسـلام إلى يومنا هذا فلـم أر فيها بعد الخلفـاء الراشدين وعمـر بن عبد العـزيز رضي الله عنهـم ملكا أحسن سيرة مـن نور الديـن، ولاأكثر تحريا للعدل والانصاف منه.

وقال الحافظ ابن عساكر رحمه اللـه: وكان لايأكل ولايلبس ولايتصرف فيما يخصه الا من ملـك اشتراه من سهمه من غنـائم الكفار، وكان يحضر الفقهـاء ويستفتيهم فيما يحل لـه مـن تناول الأمـوال فـأفتـوه من جهـات عينوها فلـم يتعد الى غيرها، ولم يلبس حـريرا قط ولاذهبا ولافضـة، ومنع من بيع الخمـر في بلاده، وكان يحدّ شاربها، والناس عنـده سواء في ذلك، وكـان كثير الصيـام ولـه أوراد في الليـل والنهـار، وكـان يقـدم أشغـال المسلمين عليها، ثم يتم أوراده، وكان قد تـزوج الخاتون بنت معين الدين أنـر، فطلبت منـه زيادة نفقـة، وقال: وقـد فـرضت لها مـايكفيها، واللـه لأخـوض جهنم بسببهـا، وهذه الأمـوال ليست لي وإنما هـي للمسلمين وأنا خـازنهم فلا أخونهم فيها، ولي بحمـص ثلاث دكاكين اشتريتهـا من الغنائم قد وهبتها لها، وكان يحصل منها قدر يسير.

وكان أول من بنى دار العدل بدمشق وسماها دار الكشف، وسببه أن الامراء لما قدموا دمشق اقتنوا الاملاك واستطالوا على الناس وخصوصاً أسد الدين شيركوه، وكثرت الشكاوى الى القاضي، فلم يقدر على الانصاف من أسد الدين، فشكوا إلى نور الدين، فأمر ببناء دار العدل، فأحضر أسد الدين شيركوه أصحابه وديوانه وقال: إن نور الدين مابنى هذه الدا ر الا بسببي وحدي لينتقم مني، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين، والله لئن أحضرت الى دار العدل بسبب واحد منكم لاصلبنه، فإن كان بينكم وبين أحد منازعة فأرضوه مهما أمكن، ولو أتى على جميع مافي يدي، فان خروج أملاكي من يدي أهون من أن يراني نور الدين بعين الظالم ويسوي بيني وبين آحاد العوام، ففعلوا وأرضوا الخصوم، فجلس نور الدين في دار العدل وقال للقاضي: ماأرى أحدا يشكو من شيركوه، فأخبره الخبر، فسجد فقال: الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من نفوسهم قبل حضورهم عندنا، وكان نور الدين يقعد في دار العدل في كل اسبوع أربعة ايام أو خمسة، ويحضر عنده العلماء والفقهاء، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب، ويوصل إليه الشيخ الضعيف والعجوز الكبيرة، ويساءل الفقهاء عما أشكل عليه.

وكان إذا مات أحد من جنده، أو قتل وله ولد فإن كان كبيرا أقر الاقطاع عليه، وإن كان صغيرا رتب معه من يتولى أمره الى ان يكبر، وما كان أحد من الأمراء يتجاسر أن يجلس عنده من هيبته، فإذا دخل فيه فقير أو عالم أورب خرقة قام ومشى إليه وأجلسه إلى جانبه، ويعطيهم الاموال، فإذا قيل له في ذلك، يقول: هؤلاء لهم حق في بيت المال، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا.

وأسقط ماكان يؤخذ من دار البطيخ وسوق الخيل والغنم والكيالة وجميع المكوس، وعاقب على شرب الخمر، وكان كثير المطالعة في الكتب

الدينيـة متبعا الآثار النبويـة مواظباً على الصلوات الخمـس في الجماعات عاكفـاً على تلاوة القرآن، حريصـاً على فعل الخير، عفيف البطـن والفرج، مقتصدا في الانفـاق، متحريا في المطعـم والمشرب والملبس، لم تسمـع منه كلمة فحـش قط لا في رضاه ولا في غضبـه، هذا مـع ماجمع الله فيـه من العقل المتين والرأي الصائب الرصين، والاقتـداء بسنة السلف الصالحين، حتى روى حـديث المصطفى وأسمعـه، وكان قـد استجيز له ممـن سمعه وجمعه حرصا منه على الخير ونشر السنة والتحـديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمـة أربعين حديثـا كما جاء في الحديـث، وكان يكتـب خطا حسنـا، وكان عـارفـا بمـذهب أبي حنيفـة رضي اللـه عنـه، وليس عنـده تعصب على أحد، والمذاهب كلها سواء.

وقال ابن الأثير: كان يـوما يلعب بالاكره في ميدان دمشـق، فجاء رجل فوقف بازائه وأشار إليه، فقال للحاجب: اسـأله ماحاجته؟ فسأله، فقال لي مـع نور الـدين حكـومة، فـرمى الصـولجان من يـده وجاء إلى مجلـس القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري، وتقدمه الحاجب يقول للقاضي: قد قال لك: لاتنزعج واسلك معه مـاتسلكه مع آحاد الناس، فلما سوى بينه وبين خصمه وتحاكما، فلم يثبـت للرجل عليه حق، وكان يـدعي ملكاً في يد نور الدين، فقال نور الديـن للقاضي والعدول: هل ثبت له عليّ حق؟ قالوا: لا، قال: فـاشهدوا أني قد وهبت له هذا الملـك، وقد كنت أعرف أنه لاحـق له عنـدي، وإنما حضرت معه لئـلا يقال عنـي أني دعيت الى مجلس الشرع فأبيت.

قال: ودخل يوما إلى خزائنه فـرأى مالا كثيراً فقال: من أين هذا؟ قال خازنـه: بعث بـه القاضي كمال الـدين مـن فائض الاوقـاف، فقال: ردوه اليـه وقولـوا لـه: إن رقبتـي دقيقة لاتقـدر على حملـة غـدا، وأنت رقبتـك غليظـة تقدر على حملـه، وكان لـه برسـم نفقته الخاص في كـل شهر مـن

الجزية مـايبلغ ألفي قـرطاس يصرفها في كسـوته وملبوسـه ومأكولـه حتى أجرة خيـاطه وجـامكية طبـاخه، ويستفضـل منها مـايتصدق بـه في آخر الشهر، ويقـال ان قيمة القـراطيس مـائة وخمسون درهما، وقيـل كل ستين قرطاسا أو سبعين بدينار.

قال ابن الأثير: وما كـان يصل إليه من هدايا الملـوك وغيرهم يبعثه الى القاضي كمال الـدين يبيعه، ويعمـر به المسـاجد المهجورة ولايتنـاول منه شيئاً.

وقال ابن الجوزي: وكان يتـدين بطاعة الخلافة، والطرق آمنـة في أيامه، والمحامد كثيرة، وكان يميل إلى التواضـع ويحب العلماء وأهل الدين، وقد كاتبني مرارا، وقد صنف له كتابـا سماه الفخر النوري فيه أحاديث العدل والجهاد ومـواعظ، وغير ذلك، وصنـف نور الديـن أيضا كتابـا في الجهاد وهو بدمشق.

وقال السبط رحمه الله: كـانت له عجائز بدمشق وحلـب، وكان يخيط الكوافي ويعمل السكاكر للابـواب وتبيعها العجائز ولايدري أحد، فكان يوما يصوم ويفطر على اثمانها.

وحكى شرف الـدين يعقـوب ولد المبـارز المعتمد ان في دارهـم سكرة من عمل نور الدين، وهي باقية الى سنة خمس وستمائة يتبركون بها.

وفي المرآة: قال: حكـى لي رجل صالح مـن أهل حران، قـال: لما قتل أتابك زنكي على قلعة جعبر، وملك نـور الدين قلعة حلب تصدق وأزال المكوس، ورد المظالم، وأنـا حديث عهد بعـرس، وقد ركبني دين، فقـالت لي زوجتـي قد سمعـت أوصـاف نـور الديـن واحسـانـه الى الناس، فلـو قصدته وأنهيت إليـه ذلك لقضى دينك، قال: فخرجـت من حران وليس معي سوى درهمين، فتركـت عندها درهما وتزودت بدرهـم وأتيت الفرات

وقت القائلة فعبرت جسر منبج وأبعدت عن أعين الناس، وخلعت ثيابي ونزلت فتوضأت للصلاة وصليت ركعتين وإذا إلى جانبي شخص ملفوف في عباءة، فقال لي: يافقير من أين أنت؟ قلت: من حران، قال: وإلى أين؟ قلت: إلى حلب، قال: وماتصنع فيها؟ فقلت: أنا فقير مديون، وقد بلغني احسان نور الدين إلى الخلق فقصدته لعله يقضي ديني، فقال: وأين أنت من نور الدين، ومن يوصلك إليه، كم عليك دين؟ قلت: خمسون دينارا فأخرج يده من العباءة وبحث الرمل وأخرج منه قرطاساً وألقاه إلي، وقال: خذ هذا فاقض به دينك وارجع إلى أهلك، قال: فأخذته فعددته وإذا به خمسون ديناراً، فالتفت فلم أره، فبهت وبت في مكاني أتفكر هل أرجع إلى حران أم أمضي إلى حلب، وترجح عندي المضي إلى حلب، وقلت في نفسي: فهذه أوفي بها ديني فمن أين أتقوت؟ ثم قمت وقصدت طريق حلب، فبت بباب بزاعة، وقمت في الليل فأصبحت تحت قلعة حلب وقت الصباح، وقعدت تحت القلعة، وإذ فتح بابها ونزل نور الدين في أبهة عظيمة والامراء بين يديه حتى جاء الى الميدان، فلما أراد ان يدخل نظر الي فرمقني طويلا وأشار الى خادم بين يديه، فجاء الخادم إليّ وقال: قم، فأخذني وصعد بي الى القلعة، قال: فندمت على مجيئي حلب، وقلت: ياليتني قبلت من ذلك الرجل الصالح، ولعل نور الدين توهم أني اسماعيلي.

قال: فلما كان بعد ساعة عاد نور الدين الى القلعة وجلس في الإيوان، ومد سماط عظيم، ولم يمد يده اليه، وإذا قد فتح باب عن يمينه صغير وخرج منه خادم وعلى يده طبق خوص مغطى بمنديل فوضعه بين يديه، وفيه غضارة عليها رغيف فتأملها من بعيد وهي ثردة فتناول منها شيئا يسيرا وأكل الناس وأكلت معهم، وصرف الناس وبقيت قاعدا خائفا فأومأ إليّ، فقمت وأتيت الى بين يديه وانا خائف أرعد، فقال: من أين أنت؟ قلت: من حران، قال: وما الذي أقدمك؟ قلت: علي دين وبلغني احسانك إلى الناس فقصدتك لتقضي ديني، قال: وكم دينك؟ قلت:

خمسون ديناراً، قال: أما أعطاك صاحب العباءة أمس على الفرات خمسين ديناراً، هلا رجعت إلى أهلك وأنت عليك خرقة الفقر، وإذا حصل القوت للفقير فلا يطلب شيئاً آخر، ثم قال: مانضيع تعبك، ورفع سجادته وكانت زرقاء، وإذا بقرطاس مثل القرطاس الذي أعطاني صاحب العباءة.

قال: فبكيت بكاء كثيراً وقلت: لا آخذه حتى تخبرني بصاحب العباءة، قال: هو أمر لايلزمك، فقلت: يامولاي أنا غريب وضيف ولي حرمة، فبالله عليك أخبرني، فقال: احلف لي أنك لاتتحدث بهذا في حال حياتي فحلفت له، فكشف القباء وإذا بتلك العباءة على جسده، وقال: أنا ذاك الفقير، فقلت: بالله الذي أعطاك هذه المنزلة بأي شيء وصلت إلى هذا؟ فقال: بقوله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ [الانبياء ١٠١]، قال: لما التقينا بالافرنج على حارم ونصرنا الله عليهم وعدت إلى حلب التقاني في الطريق شاب حسن الوجه طيب الرائحة فسلم علي، وقال: يامحمود أنت من الأبدال، وقد أعطاك الله الدنيا فاشتر بها الآخرة وسله مهما شئت، ثم علمني كلمات، وقال: إذا طلبت أمراً فاذكرها، فقلت له: فبالله من أنت؟ فقاتل: أنا أخوك الخضر، ثم غاب عني، فإذا عزمت على أمرٍ أو أردت أن أذهب إلى مكة أو المدينة أو إلى أي بلد شئت لبست العباءة، وتكلمت بتلك الكلمات وأغمض عيني وما أفتحها إلا وأنا في تلك البقعة.

قال السبط أيضاً: وحكى لي نجم الدين الحسن بن سلام، أحد عدول دمشق وأعيانها، وكان صديقنا وصاحبنا رحمه الله، قال: لما ملك الأشرف ابن العادل دمشق وبنى مسجد أبي الدرداء في القلعة وأفرده عن الدور، قال: وما صلى فيه أحد منذ زمان أبي الدرداء إلى الآن، فقلت له: الله الله يامولانا مازال نور الدين منذ ملك دمشق يصلي فيه الصلوات الخمس، فقال: من أين لك هذا؟ قلت: حدثني والدي ـ وكان من

أكابر عدول دمشق، وكان أبوه يلقب بالسعيد ـ أنه لما نزلت الفرنج على دمياط بعد وفاة أسد الدين شيركوه رحمه الله، وضايقوها وأشرفت على الأخذ، فأقام نور الدين عشرين يوماً صائماً لايفطر الا على الماء، فضعف وكاد يتلف ، وكان مهيباً لايتجاسر أحد أن يخاطبه في ذلك، وكان له إمام يقال له يحيى ضرير يصلي به في هذا المسجد، وكان يقرأ عليه القرآن، وله عنده حرمته، فاجتمع إليه خواص نور الدين وخدمه وقالوا له: قد خفنا على السلطان ونحن من هيبته مانقابله، وأنت تدل عليه، ونحن نسألك أن تسأله أن يتناول شيئا مما يحفظ به قوته فقال: نعم إذا صليت به غداة الفجر سألته، قال: فلما كان في تلك الليلة رأى الشيخ يحيى في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: يايحيى بشر نور الدين محمود برحيل الفرنج عن دمياط، قال: فقلت: يارسول الله ربما لايصدقني، وأريد له أمارة، قال: قل له: «بعلامة يوم حارم».

قال: فانتبه يحيى وهو ذاهب العقل، فلما صلى نور الدين خلفه الفجر وسلم شرع يدعو، ففاته أن يتحدث معه، فقال له نور الدين: يايحيى، قال: لبيك يامولانا، قال: تحدثني أو أحدثك؟ قال: فارتعد يحيى وخرس فقال له: أنا أحدثك، رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة، وقال لك كذا وكذا، فقال: نعم يامولانا، فقال: يامولانا مامعنى قوله عليه السلام: «بعلامة يوم حارم» فقال له نور الدين: لما التقى الصفان يوم حارم خفت على الاسلام لأني رأيت من كثرة الفرنج ماهالني، فانفردت عن العسكر ونزلت فمرغت وجهي على التراب وقلت: ياسيدي من محمود في الدين، الدين دينك، والجند جندك، وهذا اليوم هو، فافعل مايليق بكرمك، قال: فنصرنا الله عليهم.

السابع: فيما فعله من الخيرات ومابناه من بيوت العبادات وغيرها.

وكان نور الدين رحمه الله بنى المدائن وأوقف الاوقاف، وبنى سور

دمشق والمساجد والمدارس، ووقف أوقافا على المرضى والمجانين، وبنى المكاتب لليتامى، وبنى المارستان في دمشق، ووقف على سكان الحرمين وأقطع أمراء العرب القطائع لئلا يتعرضوا للحاج، وأمر باكمال سور المدينة، وأجرى إليها العين التي تأخذ من أُحد من عند قبر حمزة رضي الله عنه، وبنى الربط والخانات والقناطر، وجدد كثيراً من قني السبيل، ووقف كتباً كثيرة في مدارسه، وأول من بنى دار العدل بدمشق، وقد ذكرناه، وبنى جامعا في الموصل، وفوض عمارته الى الشيخ عمر الملاء، وكان من الصالحين، وإنما سمي الملاء لانه كان يملأ تنانير الآجر، ويأخذ الاجرة فيتقوت بها، وكان لايملك شيئا من الدنيا، وكان عالما بفنون العلوم، وجميع الملوك والعلماء والأعيان يزورونه ويتبركون به، وصنف كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يعمل بمولد رسول الله عليه السلام في كل سنة، ويحضر عنده صاحب الموصل والأكابر، وكان نور الدين يحبه ويكاتبه، وكان مكان الجامع النوري خربة واسعة ماشرع أحد في عمارتها الا وقصر عمره، فأشار عمر على نور الدين بعمارتها جامعاً، فاشتراها وأنفق عليها أموالا كثيرة، يقال ستون ألف دينار، ويقال ثلاثمائة ألف دينار، فتم في ثلاث سنين، ولما تمّ جاء نور الدين إلى الموصل ـ وهي المرة الاخيرة ـ فصلى فيه، ووقف عليه قرية بالموصل ورتب فيه الخطيب والمؤذنين والحصر والبسط وغيرها، ثم دخل عمر الملاء على نور الدين وهو جالس على دجلة، فوضع بين يديه أوراق الحساب والخرج، وقال: يامولانا أشتهي ان تنظر فيها، فقال له نور الدين: ياشيخ نحن عملنا هذا لله دع الحساب إلى يوم الحساب، ثم رمى بالأوراق في الدجلة.

وقال ابن الأثير: وبنى جامع حماة على العاصي وهو من أحسن الجوامع.

قال: ووقع بيد نور الدين أفرنجي من أكابر الملوك ففدى نفسه بمال

عظيم، فشاور نور الدين أمرائه فأشاروا ببقائه في الاسر خوفاً من شره، فأرسل إليه نور الدين في السر يقول: أحضر المال، فأحضر ثلاثمائة ألف دينار، فأطلقه نور الدين، فعند وصوله الى مأمنه مات، وطلب الأمراء سهمهم من المال، فقال نور الدين: ما تستحقون منه شيئاً لانكم نهيتم عن الفداء، وقد جمع الله لي الحسنيين: الفداء وموت اللعين، وخلاص المسلمين منه، فبنى بذلك المال مارستان دمشق ومدرسة ودار الحديث بدمشق، ووقف عليها الاوقاف.

قال ابن الأثير: وبلغني ان اوقاف نور الدين في أبواب البر بالشام في وقتنا هذا - وهو سنة ثمان وستمائة كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها ملك، بل حق ثابت بالشرع باطنا وظاهرا، صحيح الشراء.

وقال السبط: أما في زماننا هذا فقد تشعث وقفه وتغيرت صفاته، ولم يبق منه الا آثاره وبركاته

وقال ابن الأثير: وفي سنة وفاته أكثر من الخيرات والصدقات والاوقاف، وعمارة المساجد المهجورة، واسقاط كل ماكان فيه من الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخراج وماتحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج:

قال [العماد]: وأمرني بكتابة المناشير، فكتبت أكثر من ألف منشور وحسبنا ماتصدق به في تلك الشهور فكان ثلاثين الف دينار.

وقال العماد: بنى جامع قلعة دمشق ومسجد عطية بباب الجابية، ومسجد الرماحين، ومسجد سوق الصاغة ومسجد دار البطيخ، ومسجد العباسي، ومسجداً بجوار بيعة اليهود، ومسجد الكشك، وأشياء أخر.

وقال ابن الجوزي: وكان من عزمه أن يفتح البيت المقدس، فعمر

منبراً وقبلة بجامع حلب على اسم القدس، فتوفي قبل الفتوح، فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس، حمل المنبر إليه وأبقى القبلة بجامع حلب.

وحكي عن الشيخ أبي عمر شيخ المقادسة رحمه الله قال: كان نور الدين رحمه الله يزور والدي الشيخ أحمد رحمه الله في المدرسة الصغيرة التي على نهر يزيد المجاورة للدير، ونور الدين بنى هذه المدرسة والمصنع والفرن.

وقال ابن خلكان رحمه الله: وبنى نور الدين المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل: دمشق، وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، ومنبج، والرحبة، وبنى جامع الرها، وجامع منبج، ودار الحديث بدمشق.

وقال النويري في تاريخه: وأحصيت أوقافه، وكانت في كل شهر تسعة عشر ألف دينار مصرية من وجه حل: أما من إرث والده أو من سهمه في الغنيمة، وهو الذي بنى أسوار مدن الشام مثل: دمشق، وحمص وحماه، وحلب، وشيزر، وبعلبك، وغيرها، لما هدمت بالزلازل.

وقال ابن كثير: وبنى المارستان الذي بدمشق، وهو أحسن مابني من المارستانات بالبلاد، ومن شرطه أنه على الفقراء والمساكين، وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها الا فيه، فلا يمنع منه الأغنياء ومن جاء إليه مستوصفا، فلايمنع من شرابه،، ولهذا جاء نور الدين إليه وشرب من شرابه.

وقال ابن كثير: ويقول بعض الناس: إنه لم تخمد النار فيه منذ بني الى زماننا هذا والله أعلم، وقد بنى الخانات في الطرقات والابراج والخفر في الاماكن المخوفة، وفيها الحمام الهوادي التي تطالع بالاخبار في أسرع مدة، وبنى الربط والخانقاهات.

وقال ابن الأثير: وهو أول من بنى دار الحديث، ووقف على من يعلم الايتام الخط، وجعل لهم نفقة وكسوة، وعلى من يقرأ آي القرآن وعلى المجاورين بالحرمين، وكان الجامع بدمشق داثراً، فولى نظره للقاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري الموصلي الذي قدم عليه، فولاه قاضي القضاة بدمشق فأصلح أموره، وفتح المشاهد الأربعة، وقد كانت حواصل الجامع بها من حين احترق في سنة احدى وستين وأربعمائة.

وأضاف إلى أوقاف الجامع الاوقاف التي لايعرف واقفوها، ولاتعرف شروطهم فيها، وجعلها قلما واحدا، وسمي مال المصالح ورتب عليه ذوي الحاجات والفقراء والمساكين والارامل والايتام وماأشبه ذلك، وأحاط السور على حارة اليهود وكان خراباً، وأغلق باب كيسان، وفتح باب الفرج ولم يكن هناك قبله باب بالكلية.

وحكى الشيخ شهاب الدين أن نور الدين وقف بستان الميدان سوى الغيط الذي قبليه، نصفه على تطييب جامع دمشق، والنصف الآخر يقسم على أحد عشر جزءاً جزآن على تطييب المدرسة التي أنشأها للحنفية والتسعة الاجزاء الباقية على تطييب المساجد التسعة، وهي: جامع الصالحية بجبل قاسيون، وجامع القلعة، ومسجد عطية، ومسجد ابن لبيد بالفسقار، ومسجد الرماحين المعلق، ومسجد العباسي بالصاغة، ومسجد دار البطيخ المعلق، والمسجد الذي جدده نور الدين بجوار بيعة اليهود، لكل من هذه المساجد جزء من أحد عشر جزءاً من النصف.

الثامن: في فتوحاته وبلاده.

قال النويري: وكان قد اتسع ملكه جدا، وخطب له بالحرمين ومصر والشام وحلب وديار بكر والجزيرة، وكذلك باليمن لما ملكها الملك المعظم تورانشاه بن أيوب بن شادي، وطبق ذكره الارض بحسن سيرته

وعدله وكرمه وصدقاته، وتصدق في شهر واحد بثلاثين ألف دينار، وقسم في يوم واحد مائتي ألف دينار خلاف الدواب والسلاح والخيام، وكان يحضر أماثل البلد عنده ويعطيهم الذهب ويقول: تصدقوا به على من تعرفونه في جواركم من الارامل والايتام.

وقال ابن الجوزي: ولي نور الدين الشام سنين وجاهد بالثغور، وانتزع من أيدي الكفار نيفا وخمسين مدينة وحصنا، منها: الرها، وكان محبا للعلماء وأهل الدين، وكاتبني مراراً، وعاهد ملك الافرنج صاحب طرابلس، وقد كان في قبضته أسيراً، على أن يطلقه بثلاثمائة ألف دينار وخمسين ومائة حصان، وخمسمائة زدرية ومثلها أتراس أفرنجية، ومثلها قنطاريات، وخمسمائة أسير من المسلمين، وأنه لايغير على بلاد الاسلام سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وأخذ منه في قبضته على الوفاء بذلك مائة من اولاد كبراء الافرنج وبطارقتهم، فإن نكث أراق دمهم، وعزم على فتح بيت المقدس فوافته المنية في شوال من هذه السنة.

وذكر الحافظ ابن عساكر رحمه الله فتح نور الدين رحمه الله نيفا وخمسين حصناً، منها: تل باشر وعينتاب، واعزاز، ومرعش، وبهسنى، وتل خالد، وحارم، والمرزبان، ورعبان، وكيسون، والرها، وكسرابرنس انطاكية وقتله، وقتل معه ثلاثة آلاف ، وأخذ من القومض ثلاثمائة الف دينار وخمسمائة زردية، وخمسمائة حصان، وخمسمائة أسير، واتسع ملكه، ففتح الموصل والجزيرة وديار بكر والشام، والعواصم، ودمشق، وبعلبك وبانياس، ومصر، واليمن، وخطب له في الدنيا، وأظهر السنة بحلب، وأزال الأذان بحي على خير العمل، وكان يتعرض للشهادة، ويسأل الله تعالى أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير.

التاسع: في وفاته:

قال العماد: وأمر نـور الدين بتطهير ولده الملك الصالـح اسماعيل يوم عيد الفطر، قال: ونظمت للهناء بالعيد والطهر قصيدة منها:

عيـــــدان فطـــــر وطهـــــر
وفتـــــح قـــــريـــــب ونصر
كـــــلاهما لـــــك فيـــــه
حقـــــاً هنـــــاء وأجـــــر
وفيهما بـــــالتهـــــاني
رســـــم لنـــــا مستمـــــر
طهـــــارة طـــــاب فيهـــــا
أصـــــل وفـــــرع وذكـــــر
نجـــــل على الطهـــــر نـــــام
زكـــــا لـــــه منـــــك نجـــــر
محمـــــود الملـــــك العـــــاد
ل الكـــــريـــــم الاغـــــر
وبـــــابنـــــه الملك الصـــــا
لـــــح العيـــــون تقـــــر
مـــــولى بـــــه اشتـــــد للـــــد
يـــــن والشريعـــــة ازر

وهي قصيدة طويلة آخرها:

هـــــذا الطهـــــور ظهـــــور
على الـــــزمـــــان وأمـــــر
وذا الختـــــان ختـــــام
بمسكـــــه طـــــاب نشر

قال: وفي يـوم العيد ركـب نور الديـن على الرسم المعتـاد، محفوفـاً من اللـه بالاسعـاد، والقـدر يقول لـه: هذا آخـر الاعيـاد، ووقف في الميـدان

الاخضر، ورمى القبـق، وكان قد ضرب خيمتـه في الميدان القبلي الاخضر، وأمر بوضـع المنبر، وخطب له القاضي شمـس الدين بن الفـراش، قاضي العسكر، بعد ان صلى به، وعاد الى القلعـة وأنهب سماطه العام، على رسم الاتراك وأكابر الاملاك.

قـال: ثم حضرنـا على خوانـه الخاص في يوم الاثنين ثـاني العيد، بكـر وركب ودخل الميـدان والعظماء يسايرونه وفيهم همام الديـن مودود، وكان قديما في أول دولته والي حلـب، فقال لنور الدين في كـلامه عظة لمن يغتر بأيـامه: هل نكون هـاهنا في مثل هذا اليـوم في العام القابل؟! فقـال نور الـدين: قـل: نكـون بعد شهـر، فـإن السنـة بعيدة، فجـرى على منطقهما ماجـرى به القضـاء السابـق، فإن نـور الديـن لم يصل إلى الشهـر، وهمام الدين لم يصل الى العام.

ثم شرع نور الـدين في اللعب بالاكـرة، فاعترضه أمير يقال لـه يرنقش وقال له: بـاش، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، وكـان ذلك على خلاف مذهبـه، ونهره وزجره، ثم ساق ودخـل القلعة واحتجب فبقي اسبـوعا في منزله، ثم اتصل به مرض، وأشار عليـه الاطباء بالفصد فامتنع من ذلك، وكان مهيبـاً فما روجع، وانتقـل يوم الاربعـاء حادي عشر شـوال من دار الفناء الى دار البقاء.

وقال ابن شـداد: وكانت وفاة نور الـدين بسبب خوانيـق اعترته عجز الاطباء عن علاجها.

وقـال ابن الاثير: وكـان نـور الـدين قـد شرع بتجهيـز المسير الى مصر لاخذها من صلاح الـدين، فإنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنـج من ناحيته فـأرسل الى الموصـل وديـار الجزيرة وديـار بكر يطلـب العسـاكر ليتركهـا بالشـام لمنعه من الافـرنج، ليسير هو بعسـاكره الى مصر، وكان المانـع من

صلاح الدين من الغزو الخوف من نور الدين، فإنه كان يعتقد ان نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه، وكان نور الدين لايرى الا الجد في غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى اخلال صلاح الدين بالغزو، علم غرضه فتجهز للمسير إليه فأتاه أمر الله الذي لايرد.

قال: وحكى لي طبيب بدمشق يعرف بالرحبي، وهو أحذق الاطباء قال: استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الاطباء، فدخلنا عليه وهو ببيت صغير بقلعة دمشق، وقد تمكنت الخوانيق منه، وقارب الهلاك، فلا يكاد يسمع صوته، وكان يخلو فيه للتعبد في أكثر أوقاته، فابتدأ به المرض، ينتقل عنه، فلما دخلنا عليه ورأينا مابه قلت: كان ينبغي أن لايؤخر إحضارنا عندك إلى أن يشتد المرض الى هذا الحد، فالآن ينبغي ان تنتقل الى مكان فسيح، فله اثر في هذا المرض، وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدواء، ومات عن قريب.

قال ابن عساكر: وتوفي يوم الاربعاء الحادي عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل الى تربة تجاور مدرسته التي بناها لاصحاب ابي حنيفة رضي الله عنه جوار الخواصين في الشارع الغربي.

وقال العماد: قلت في ذلك:

عجبت الى الموت كيف اهتدى
الى ملك في سجايا ملك
وكيف ثوى الفلك المستدير
في الارض والارض وسط الفلك

وقال ابن كثير: حصلت له علة الخوانيق ومنعته عن النطق، فمات في التاريخ المذكور، وصلي عليه بجامع القلعة ودفن بها حتى حُول الى تربته

التي بنيت له بباب المدرسة التي أنشأها للحنفية وقبره بدمشق مشهور، يزار ويخلق شباكه فيستطيب رائحته كل مار، وإنما يقول الناس: نور الدين الشهيد، لما حصل له من الخوانيق، وكذا كان يقال لأبيه الشهيد، ويلقب بالقسيم، وكانت الافرنج يقولون له ابن القسيم.

وقال ابن خلكان: ويقول أهل دمشق ان الدعاء عند قبره مستجاب، وقال القاضي: ولقد جربت ذلك فصح، وكان عمره حين مات ثمانيا وخمسين سنة، وله في الملك ثمان وعشرون سنة.

العاشر: فيما رثي به، وما قيل له من الاشعار:

قال العماد: ومما نظمته في مرثية نور الدين قصيدة:

لفقد الملك العادل
يبكي الملك والعدل
وقد أظلمت الآفا
ق لاشمس ولاظل
ولما غاب نور الدي
ن عنا أظلم الحفل
وزال الخصب والخير
وزاد الشر والمحل
ومات البأس والجود
وعاش اليأس والبخل
وعز النقص لما هان
أهل الفضل والفضل
وما كان لنور الدين
لولا نجله مثل

وقال أيضاً:

يـــاملـــك أيـــامـــه لم تـــزل
لفضلـــه فـــاضلـــة فـــاخـــره
ملكـــــت دنيـــــاك وخلفتهـــــا
وسرت حتـــــى تملـــــك الآخـــــرة

وكـان الـواعـظ أبـو عثمان المنتجب بـن أبي محمد الـواسطـي مـن الصالحين الكبار أنشد لنور الدين بقوله:

مثـــل وقـــوفـــك أيها المغـــرور
يـــوم القيـــامـــة والسماء تمور
إن قيـــل نـــور الـــديـــن رحـــت مسلما
فـــاحـــذر بـــأن تبقـــى ومـــالـــك نـــور
نهينـــت عـــن شرب الخمـــور وأنـــت في
كـــاس المظـــالم طـــافـــح مخمـــور
عطلـــت كـــاس ســـالـــف المدام تعففـــا
وعليـــك كـــاســـات المظـــالم تـــدور
مـــاذا تقـــول إذا انقلبـــت الى البلى
فـــردا وجـــاءك منكـــر ونكير
وتعلقـــت فيـــك الخصـــوم وأنـــت في
يـــوم الحســـاب مسحـــب مجرور
وتفـــرقـــت عنـــك الجنـــود وأنـــت في
ضيـــق اللحـــود مـــوســـد مقبـــور
وددت أنـــك مـــا وليـــت ولايـــة
يـــومـــا ولا قـــال الانـــام أمير
وبقيـــت بعـــد العـــز رهـــن حفيرة
في عـــالم الموتـــى وأنـــت حقير
وحشرت عـــريـــانـــا حـــزينـــا بـــاكيـــنـــا
قلقـــا ومـــالـــك في الانـــام مجير
أرضيـــت ان تحيـــى وقلبـــك دارس
عـــا في الخراب وجسمـــك المعمـــور

أرضيت ان يحظى سواك بقربه
ابداوأنت مبعد مهجور
مهد لنفسك حجة تنجو بها
يوم المعاد لعلك المعذور

فلما سمعها الملك نور الدين بكى وأمر بوضع المكوسات والضرائب في سائر البلاد، وقيل إن برهان الدين البلخي أنكر على نور الدين استعانته في الحروب بأموال المكوس، قال: وكيف تنصرون وفي عسكركم الطبول والخمور والزمور؟!

وقص عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني الشاعر أنه رأى في منامه أنه يغسل ثياب الملك نور الدين، فأمره أن يكتب مناشير بوضع المكوسات والضرائب عن البلاد، وقال: هذا تفسير رؤياك، وكتب إلى الناس يستحل منهم عما أخذ منهم ويقول: إنما صرفت في قتال أعدائكم من الكفرة، وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا من التجار لنور الدين، وكان يقول في سجوده: اللهم أنا العشار المكاس.

الحادي عشر: في تملك ولده الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن الاتابك زنكي بن آقسنقر.

ولما توفي نور الدين في التاريخ المذكور، ملك ولده المذكور دمشق وما معها بعد أن حلف له الامراء والمقدمون بدمشق، وكان عمره احدى عشرة سنة، وأطاعه أهل الشام، وخطب له الناصر صلاح الدين بمصر وضرب السكة باسمه، وأظهر له الطاعة، وتولى تربيته وتدبير دولته الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم، وقال له كمال

الدين بن الشهرزوري ولمن معه من الامراء والمقدمين: قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر من أصحاب الشهيد، والمصلحة ان نشاوره في الذي نفعله ولانخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا، ويجعل ذلك حجة علينا وهو أقوى منا، لانه انفرد اليوم بملك مصر، فلم يوافق هذا القول أغراضهم، وخافوا ان يدخل صلاح الدين فيخرجهم، فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهنيه بالملك، وأرسل دنانير مصر عليها اسمه، ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه.

ولما سار سيف الدين غازي بن قطب الدين، صاحب الموصل، إلى الجزيرة وملك البلاد الجزرية على مانذكره أرسل صلاح الدين يعتب الملك الصالح حيث لم يعرفه قصد سيف الدين ابن عمه بلاده قبل أخذها ليحضر في خدمته ويكفه عنه، وكتب إلى الشهرزوري والأمراء يقول لهم: لو كان نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه ثقته إلي لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل إليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربيته لولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمته وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها له، وأجازي كلا منكم بسوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده، وتمسك ابن المقدم وجماعة من الأمراء بالملك الصالح ولم يرسلوه إلى حلب خوفا أن يغلب عليهم شمس الدين علي ابن الداية، فإنه كان أكبر الامراء النورية، وإنما منعه من الاتصال بخدمته مرض لحقه، وكان هو وأخوه بحلب وأمرها إليهم وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده.

ولما عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ليمنع به البلاد الجزرية من سيف الدين ابن عمه، فلم يمكنه الامراء الذين معه من الانتقال إلى حلب.

وفي المرآة: وكان الصالح لم يبلغ الحلم فأجلسوه مكان أبيه، وحضر القاضي كمال الدين ابن الشهروزري وشمس الدين ابن المقدم، وجمال الدين ريحان، وهو أكبر الخدم، والعدل أبو صالح بن العجمي أمير الأعمال، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا أن تكون أيديهم واحدة، وأن شمس الدين بن المقدم إليه تقدمة العساكر وتربية الملك الصالح، ووصل كتاب صلاح الدين، من انشاء الفاضل الى دمشق وفيه:

أدام الله أيام مولانا الملك الصالح، ورفع قدره، وأعظم أجر المملوك في مولانا السلطان الملك العادل وأجره، أصدر خدمته هذه يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة، وفيه أقيمت الخطابه بالاسم الكريم، وصرح بذكره في الموسم العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولاتأثيم، والله تعالى يخلد ملك مولانا الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه، ويديم النعمة عليه.

وذكر فصولا تتعلق بالتهنئة والتعزية:

وقال العماد: أخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصالح اسماعيل، وقد أبدى الحزن والعويل، وهو مجذوذ الذوائب مشقوق الجيب، حاسر حاف، مما فجأه وفجعه من الريب، وأجلسوه في الايوان الشمالي من الدست والتخت الباقي من عهد تاج الدولة تُتُش، فاستوفى كل قلب حزنه فاستوحش، وبعد ان تحالفوا له أنشأ العماد كتابا عن الملك الصالح إلى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين ترجمته: «اسماعيل ابن محمود» وفيه: «أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل مذب الشام بل الاسلام، حافظ ثغوره وملاحظ أموره ومقدم الجهاد ومقتني فضيلته ومؤدي فريضته، ومحيي سنته وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره، على أنه يعز ان يرى الزمان نظيره، وما هاهنا مايشغل السر ويقسم الفكر الا أمر الفرنج خذلهم

الله، وما كان اعتماد مولانا العادل وسكونه إليه الا لمثل هذا الحادث الجلل، والصرف الكارث المذهل، فقد ادخره لكفايات النوائب، وأعده لحسم ادواء المعضلات اللوازب، وأمله ليومه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده ومكنه قوة لعضده، فما فقد رحمه الله الا صورة، والمعنى باق، والله تعالى حافظ لبيته واق، وهل غيره دام سموه من مؤازر، وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر».

وفي تاريخ ابن كثير: لما مات نور الدين، وتولى ابنه المذكور، اختلف الامراء، وحارت الآراء، وظهرت الشرور، وكثرت الخمور، وانتشرت الفواحش، حتى ان ابن أخيه سيف الدين غازي ابن قطب الدين مودود صاحب الموصل لما تحقق موت عمه، وكان محصوراً منه نادى مناديه بالبلد بالمسامحة في اللعب واللهو والشرب والطرب، ومع المنادي دف وقدح ومزمار، وتحقق حينئذ قول الشاعر:

ألا فاسقني خمراً
وقل لي هي الخمر
ولا تسقني سرا
وقد أمكن الجهر

وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين، وعزم الافرنج على قصد دمشق، فبرز إليهم الاتابك ابن المقدم فواقفهم عند بانياس، فضعف عن مقاومتهم فهادنهم مدة، ودفع إليهم أموالا جزيلة عجلها لهم، ولولا خوفهم من قدوم السلطان الملك الناصر صلاح الدين، صاحب الديار المصرية لما هادنوه، ولما بلغ ذلك صلاح الدين كتب الى الامراء، وخاصة الى ابن المقدم يلومهم على ماصنعوا من المهادنة ودفع الاموال الى الافرنج وهم أقل وأذل ، وأنه عزم على قصد البلاد لحفظها من الافرنج، فردوا إليه كتابا فيه غلظة، وكلاما فيه بشاعة، فلم يلتفت

إليهم، ومن شدة خوفهم منه كتبوا إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل ليملكوه عليهم ليدفعوا به الملك الناصر صلاح الدين، فلم يفعل لانه خاف أن تكون مكيدة منهم له، وذلك أنه كان قد هرب منه الطواشي سعد الدولة كمشتكين الذي كان قد جعله عنده نور الدين عيناً عليه، وحافظاً له من تعاطي مالايليق عليه، فلما سمع الخادم بموت استاذه خاف أن يمسكه، فهرب سراً، فحين تحقق غازي موت عمه بعث في طلب الخادم ففاته، فاستحوذ على حواصله، ودخل سعد الدولة حلب، ثم سار الى دمشق فاتفق مع الأمراء على أن يأخذ ابن استاذه الملك الصالح اسماعيل إلى حلب فيربيه هنالك، وتكون دمشق مسلمة إلى الاتابك شمس الدين ابن المقدم والقلعة إلى الطواشي جمال الدين ريحان، فسار معه الأمراء والأكابر من دمشق وذلك في الثالث والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة، وحين وصلوا إلى حلب جلس الصبي على سرير مملكتها، واحتاطوا على بني الداية شمس الدين وعلى أخيه مجد الدين الذي كان رضيع نور الدين وأخوته الثلاثة، وقد كان شمس الدين ابن الداية يظن أن يسلم إليه ابن نور الدين ليربيه، لانه أحق الناس بذلك، فخيبوا ظنه وسجنوه وأخوه في الجب، فكتب صلاح الدين إلى الامراء يلومهم على مافعلوا من نقل الولد إلى حلب، ومن سجن لبني الداية، وقد كانوا من خيار الامراء، ورؤوس الأمراء الاكابر، ولم ماسلموا الولد إلى مجد الدين بن الداية الذي كان أحظى الناس عند نور الدين.

فكتبوا إليه يسيئون الادب عليه، وكل ذلك مما يزيده حنقاً عليهم، ويحرضه على القدوم بجيشه إليهم، ولكنه في هذا الوقت في شغل شاغل بما دهم بلاده من الأمر الهائل، كما سنذكره إن شاء الله تعالى في السنة الآتية، إنه على ذلك قدير.

ذكر الأمور المزعجة:

ومنها أن ملك الروم خرج من القسطنطينية، وقصد بلاد قليج أرسلان، فجرت فيها حرب استظهر فيها المسلمون، فلما رأى ملك الروم عجزه عاد إلى بلده، وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كبيرة.

ومنها أن الفرنج حاصروا بانياس ثم عادوا عنها، وقد قلنا إن هذا كان بعد موت نور الدين، وأن شمس الدين محمد بن عبد الملك خرج من دمشق، وراسل الافرنج وبذل لهم، فعادوا.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السبعين بعد الخمسمائة:

ذكر تملك صلاح الدين دمشق وأخذها من الملك الصالح بن نور الدين:

ولما مات نور الدين في التاريخ الذي ذكرناه، وتولى عوضه ولده اسماعيل، وطمعت الفرنج في بلاد الشام، واختلفت آراء أمراء الشام، وعزم السلطان صلاح الدين للتوجه إلى الشام لأخذها وحفظها من الأفرنج، ولكن عرض عليه أمران: الأول مجيء الافرنج إلى بلاد مصر، والثاني مخالفة الكنز المقدم بأسوان، فلنذكر الامرين اولا، ثم نذكر أخذ صلاح الدين دمشق.

أما الأمر الأول، فقد قال ابن كثير: استهلت هذه السنة والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على عزم الدخول الى الشام ليحفظه من أيدي الافرنج المخذولين، ولكن قد دهمه أمر شغله عنه، وذلك أن الفرنج قدموا الى ساحل البلاد المصرية في اسطول لم يسمع بمثله في كثرة مراكبه ومافيه آلات الحصار، وكثرة الرجال والمقاتلة من جملة ذلك مائتا شيني في كل منها مائة وخمسون مقاتلاً، وأربعمائة قطعة أخرى، وكان قدومهم من صقلية إلى ظاهر اسكندرية قبل رأس السنة بأربعة أيام، فنصبوا المنجنيقات والدبابات حول البلد، وبرز إليهم أهلها فقاتلوهم دونها قتالا شديداً، واستمر القتال أياماً، وقتل من كلا الفريقين خلق كثير، ثم اتفق أهل البلد على تحريق مانصبوه من المنجنيقات والدبابات، ففعلوا ذلك، فأضعف ذلك قلوب الافرنج وفت في أعضادهم، ثم كبسهم المسلمون في منازلهم فقتلوا من أحبوا وأرادوا وغنموا ماشاءوا واختاروا، وانهزم الكفار في كل وجه ولم يكن لهم ملجأ إلا

البحر والقتل، أو الأسر، واستحوذ المسلمون على أموالهم وأثقالهم وخيولهم وما ضربوه من الخيام لنزولهم، وبالجملة قتلوا خلقاً من الرجال وغنموا شيئا كثيراً من الاموال، وركب من بقي منهم في الاسطول راجعين إلى بلادهم خائبين لعنهم الله.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة قصد الافرنج ثغر الاسكندرية وجاءوا في مائتي شيني وطريدة، وأمد الملك الناصر صلاح الدين أهل الثغر بالعسكر وتحرك ليتوجه إليهم، فألقى الله في قلوبهم الرعب فعادوا خائبين بعد أن ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام وقاتلوا قتالا شديداً.

وفي تاريخ الدولتين: أما وصول الاسطول إلى اسكندرية فكان يوم الاحد السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين، وانهزم في أول المحرم سنة سبعين، وأرسل صلاح الدين كتاباً الى بعض الامراء بالشام وفيه وصول أول الاسطول وقت الظهر، ولم يزل واصلا الى وقت العصر، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر، لا على خفاء من الخبر، واستنزلوا خيولهم من الطرائد ورجالهم من المراكب، فكانت الخيل ألفين وخمسمائة فارس، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل مابين فارس وراجل، وكانت عدة الطرائد مائتا شيني، في كل شيني مائة وخمسون راجلاً، وكانت عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الاخشاب الكبار وغيرها ست سفن، وكانت عدة المراكب الحمالة برسم الازواد للرجال أربعين مركبا، وفيها من الرجال المتفرقين وغلمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية مايتم خمسين ألف راجل، ولما تكاملوا نازلين على البر حملوا على المسلمين حملة أوصلوهم إلى السور، وفقد من أهل الثغر في وقت الحملة ماينا هز سبعة أنفس، واستشهد محمود بن البصار بسهم جرخ، وجدفت مراكب الافرنج داخلة

الى الميناء، وكـان به مراكـب مقاتلة، ومراكـب مسافرة فسبقهـم المسلمون فخسفوها وغرقـوها وغلبوهم على أخذها وأحرقـوا مااحترق منها، واتصل القتال إلى المسـاء فضربوا خيامهم بـالبر، وكانت عدتهم ثـلاثمائة خيمة، فلما أصبحوا زاحفـوا وضايقوا وحاصروا ونصبـوا ثلاث دبابات بكبـاشها، وثلاثة مجانيق كباراً تضرب بحجارة سـوداء اصحبوها معهم من صقلية، والـدبابـات تشبه الابـراج في جفاء أخشـابها وارتفـاعها وكثـرة مقاتلتهـا واتساعها، وزحفوا بها إلى أن قاربت السـور، وألحوا في القتال عامة النهار المذكور، وورد الخبر إلى منـزلة العسـاكر بفاقـوس يوم الثلاثـاء ثالـث يوم نزول العدو على جنـاح الطائر، فاستنهض السلطان العساكـر إلى الثغرين اسكندريـة ودمياط، وأما اسكندريـة فإنهم فتحوا على غفلة وخـرج منها من كـان بها من الأمراء، فأحـرقوا الدبـابات المنصوبة، وأنـزل الله النصر على المسلمين والخذلان على الكفـار، واتصـل القتال الى العصر مـن يـوم الاربعاء، وانهزم الافرنـج، واستمر القتل والجرح فيهم، ولم يسلـم منهم الا مـن نزع لبسـه، ورمـى في البحر نفسـه، وتقحـم المسلمون في البحـر على بعض المراكـب فخسفوهـا وأتلفوها، فـولت بقية المراكـب هاربـة، وبقي العدو بين قتل وغـرق وأسر، واحتمى ثلاثمائة فارس في رأس تـل فأخذت خيولهم ثم قتلوا وأسروا، وأقلع هذا الاسطول عن الثغر يوم الخميس».

وذكر ابن شداد أن نـزول هذا العدو كان في شهر صفر، وكـانوا ثلاثين ألفاً في ستمائة قطعة مابين شيني وطراده وبطسة وغير ذلك.

وأما الأمر الثاني: فهو نوبة الكنز.

وقـال بيبرس في تـاريخه: وفي هـذه السنـة خـالـف الكنـز بـأسـوان، وهومقدم من المصريين كـان قد انتزح إلى أسوان، فأقام بها، ولم يـزل يدبر أمره، ويجمـع السودان عليه، ويخيـل لهم أنه يملـك البلاد ويعيد الـدولة المصرية ويقطع خطبة الناصر صلاح الديـن، ويخطب لداود بن العاضد،

فاجتمع إليه جمع وافر من السودان، وقصد قوص وأعمالها، فانتهى خبره إلى الملك الناصر، فجرد عسكراً إليه، وقدم عليه أخاه الملك العادل وتوجه صحبته أبو الهيجاء السمين، فسار إلى الكنز وقد حشد جمعا كثيرا من السودان والرعية وعربان البلاد، فالتقوا وقتلوا الكنز، وأبادوا جموعه، واطمأن الصعيد، وعاد الملك العادل وسكن القصر بالقاهرة، ولقب من ذلك الحين بالملك العادل، والكنز المذكور من قبيلة ربيعة، وكان مسكنهم بجزيرة العرب ومستقرهم منها باليمامة، وانتقلوا إلى مصر من أيام المتوكل العباسي، فسكنوا بيوت الشعر في صحارى هذه الأعمال، وكانت البجاة تشن الغارات في كل وقت، فمنعوهم من ذلك، ثم تزوجوا عندهم، وظفروا بمعدن الذهب بالعلاقي، فتمولوا.

وفي تاريخ ابن كثير: ومما عوق الملك الناصر صلاح الدين عن الشام رجل يعرف بالكنز، وسماه بعضهم عباس بن شادي، وكان من مقدمي الديار المصرية، ومن الدولة الفاطمية، وكان قد انتزح إلى أسوان وجمع عليه خلقاً من الرعاع من الحاضرة والعربان، وزعم لهم أنه سيعيد الدولة، ويدحض الدولة التركية، ثم ذكر قريباً مما ذكرناه.

وقال ابن أبي طي: خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شادي، وثار في بلاد قوص ونهبها وخربها وأخذ أموال الناس، واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكان السلطان استنابه بمصر، فجمع له العساكر، وأوقع به وبدد شمله، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بأسوان، وكان قصد بلد طود، فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

وأما توجه السلطان صلاح الدين إلى الشام فقد كان في هذه السنة، فخرج إلى البركة في مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر، ثم رحل إلى بلبيس في ثالث عشر ربيع الاول، وكان عنده رسل شمس الدين

صاحب بصرى صديق ابن جاولي، وشمس الدين ابن المقدم، ثم سار الى إيلة، ثم أناخ على بصرى فاستقبله صاحب بصرى، ولم يزل في خدمته الى الكسوة، وبكر صلاح الدين يوم الاثنين آخر شهر ربيع الاول، وسار في عسكره حتى دخل دمشق، ودخل إلى دار العقيقي، وكانت مسكن أبيه، وكان في قلعة دمشق جمال الدين ريحان الخادم، فاستمالـه صلاح الدين حتى ملك القلعة أيضاً، ونزل في القلعة سيف الاسلام أخو السلطان صلاح الدين، وأظهر السلطان لأهل دمشق أنه إنما جاء لتربية الملك الصالح بن نور الدين، وحفظ ماله من المصالح، وجاء إليه أعيان البلاد منهم: القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، فأكرمه السلطان وبالغ في اكرامه والامراء والاجناد والاتراك والاكراد والعربان، ثم أرسل السلطان الكتب الفاضلية إلى مصر بهذا الفتح والنصر، وفي بعض كتبه:

«وكان رحيلنا من بصرى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول».

وفيه: «ثم لقينا الأجل ناصر الدين بن المولى أسد الدين، والأمير سعد الدين بن أنر يوم السبت السابع والعشرين منه، ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب، واستقبلنا هناك الأجناد الدمشقية، ولما دخلنا دمشق أمرنا بالنداء باطابة النفوس وإزالة المكوس».

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة خرج الملك الناصر صلاح الدين إلى دمشق، واستناب عنه الملك العادل أخاه بالديار المصرية، وكان السبب في ذلك أن الملك الصالح بن نور الدين كتب إلى ابن عمه سيف الدين غازي بن ممدود صاحب الموصل، وإلى أخيه عماد الدين زنكي صاحب سنجار، بأن يحضرا إليه بعساكرهما ليجتمعوا جميعاً على قصد صلاح الدين، وأخذ الديار المصرية منه.

فأما أخوه عماد الدين زنكي فانه امتنع منه لأن صلاح الدين كان قد كاتبه وأطمعه في ملك والده بحكم أنه الكبير، فحمله الطمع على الامتناع على أخيه، فلما رأى أخوه امتناعه سار إليه الى سنجار وحاصره بها، وامتنع عماد الدين، وجد في حفظ البلد والذب عنها، فدام الحصار عليه فبينا هو يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذي مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين، لأنه كان عند مسيره إلى سنجار قد رتبه مع عسكر بدمشق، وصحبته أمير كبير يسمى عز الدين محمود، فلما وصل صلاح الدين إلى دمشق أخذها وانهزم العسكر الذي بها، فراسل الملك الصالح أخاه عماد الدين وصالحه على مابيده، ورحل إلى الموصل إلى سيف الدين ابن عمه ليستنجده على صلاح الدين، فسار بنفسه، وسار صلاح الدين من دمشق إلى حمص، واستخلف عليها أخاه سيف الاسلام طغتكين، وقاتل أهل حمص يوما واحدا فملكها وامتنعت القلعة عليه، فسار عنها إلى حماه وبها عزالدين جورديك، وهومن مماليك نور الدين فامتنع من التسليم، فسير إليه صلاح الدين يذكر أنه في طاعة الملك الصالح، وأنه ماخرج الا لحفظ البلاد من الفرنج، فاستحلفه على ذلك، وسلم إليه البلد، فلما تسلمها سار منها إلى حلب فحاصرها وبها الملك الصالح بن نور الدين، واتفق وصول سيف الدين غازي من الموصل منجداً له، وتقدمت عساكره لقتال صلاح الدين، فبذل له صلاح الدين تسليم حمص وحماة، وأن يقر بيده مدينة دمشق ويكون فيها نائباً من جهة الملك الصالح، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: لابد من تسليم جميع ماأخذه من بلاد الشام وعوده الى مصر، أو القتال، وكان صلاح الدين في أثناء المراسلة يجمع عساكره ويتأهب للقائه، فلما امتنع سيف الدين من اجابته لما بذل، سار بعسكره فالتقى هووعسكر سيف الدين غازي على قرون حماه، فهزمهم وتبعهم حتى حازوا معسكرهم، وغنم منهم غنائم كثيرة ودوابا وسلاحا، وعاد العسكر السيفي منهز ما إلى حلب فتبعهم صلاح الدين إليها، ونزل عليها محاصراً لها، فراسلوه في

الصلح على أن يكون له مابيده من بلاد الشام، ولهم مابأيديهم من بلاد حلب معاً، فأجابهم وانتظم الصلح، ورحل عن حلب في شوال منها، وقطع خطبة الملك الصالح من بلاده وأزال اسمه عن السكة.

وفي تاريخ النويري: وفي هذه السنة أرسل شمس الدين بن الداية المقيم بحلب كمشتكين الطواشي يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق الى حلب ليكون مقامه بها، فسار الصالح إليه، ولما استقر بحلب تمكن كمشتكين وقبض على شمس الدين ابن الداية وأخوته، وقبض على الرئيس ابن الخشاب وأخوته، وهورئيس حلب، واستبد كمشتكين بتدبير الملك الصالح، فخاف ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق، وكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه، فسار صلاح الدين جريدة في سبعمائة فارس، ووصل إلى دمشق، واستقر فيها، ولم ينتطح فيها عنزان، ولااختلف سيفان، وذلك أن نائبها شمس الدين ابن المقدم كان قد كتب إليه أولاً، فأغلظ ورمى الكتاب، فلما رأى أمره متوجهاً جعل يكاتبه ويستحثه على القدوم، ويعده بتسليم البلد، فلما رأى الجد لم يمكنه المخالفة، فسلمه البلد، فنزل السلطان أولا في دار والده، وهي دار العقيقي، وهي التي بنيت مدرسة للملك الظاهر بيبرس رحمه الله، ولما ثبت أمره بها استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغتكين، وأخذ ما في القلعة من الأموال، ثم سار إلى حمص مستهل جمادى الأولى، ونزل عليها في حادي عشر جمادى الأولى، وملك المدينة وعصت عليه القلعة، فترك عليها من يضيق عليها، ورحل إلى حماه، وملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان بقلعتها عز الدين جرديك أحد المماليك النورية، فامتنع، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ بلاد الملك الصالح بن نور الدين عليه، وإنما هو نائبه، وقصد جرديك من صلاح الدين أن يكون سفيره بينه وبين الحلبيين، فأجابه إلى ذلك، فسار جرديك إلى حلب للرسالة، واستخلف في قلعة حماه أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب

قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم بذلك أخوه سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين، فملكها، ثم سار صلاح الدين إلى حلب، فنازلها على جبل جوشن وحصرها، فاجتمع أهل حلب، وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن حلب، فأرسل كمشتكين إلى سنان مقدم الاسماعيلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين، ووثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب إلى مستهل رجب، ثم رحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص، وذلك أن أهل حلب راسلوا القومص صاحب طرابلس، ووعدوا له بأموال جزيلة إن هو رحل عنهم السلطان صلاح الدين، وكان هذا اللعين قد أسره نور الدين ومعتقلاً مدة عشر سنين، ثم فاداه على مائة ألف دينار، وألف أسير من أسارى المسلمين، وكان لاينسى ذلك لنور الدين، فركب القومص لعنه الله من مدينة طرابلس في جيشه، فلم يتجاسر على مقابلة صلاح الدين، بل قصد حمص ليأخذها بغتة، وركب إليه السلطان، وقد أرسل سرية الى بلده، فقتلوا منها وأسروا وغنموا، فلما اقترب السلطان منه نكص على عقبه، وكر راجعا الى بلده، وتراءى انه قد أجاب الى ماسألوا، فوصل صلاح الدين الى حماة، وسار الى حمص، فرحل الفرنج عنها، وحصر قلعتها وملكها في الحادي والعشرين من شعبان المعظم، ثم سار إلى بعلبك فملكها، ولما استقر صلاح الدين في هذه البلاد أرسل الملك الصالح ابن نور الدين الى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين، فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود ابن زنكي، وجعل مقدم جيشه أكبر أمرائه وهو عز الدين محمود، ولقبه سلفندار، ووصلوا إلى حلب، وانضم إليه عسكر حلب، وساروا الى صلاح الدين، وأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماه وأن تبقى بيده دمشق، ويكون فيها نائبا للملك الصالح بن نور الدين، وانما فعل ذلك صلاح الدين لقلة الجيش الذي معه بالنسبة لجيش هؤلاء، فامتنع من المصالحة الخادم كمشتكين الا ان يجعل لهم الرحبة التي بيد ابن عمه

ناصر الدين ابن أسد الدين شيركوه، فقال: ليس لي ذلك ولا أقدر عليه، فأبوا الصلح وأقدموا على القتال، فجعل صلاح الدين جيشه كردوساً واحداً، وذلك يوم الاحد التاسع عشر من شهر رمضان عند قرون حماه، فصبر صبراً عظيماً، وجاءه في أثناء الحال ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه ومعه أخوه فرخشاه في طائفة من الجيش، وقد ترجح دسته عليهم وخلص رعبه إليهم، فانهزموا مدبرين وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم، فأسر منهم من أسر من رؤسائهم، ونادى ان لايتبع مدبر، ولايذفف على جريح، ثم أطلق من وقع في أسره، وسار على الفور حتى نازل حلب، فانعكس عليهم الحال، فبالامس كان يطلب منهم المصالحة، واليوم هم طلبوا منه أن يكف عنهم ويسير عنهم على أن له المعرة وكفر طاب وبارين زيادة على مابيده من أراضي حماة وحمص وبعلبك مع دمشق، فقبل منهم وكف عنهم وحلف أن لايغزو بعدها الملك الصالح، وأن يدعو له على سائر منابر بلاده وممالكه، وشفع في بني الداية أخوة مجد الدين أن يخرجوا من السجن، ففعلوا ذلك، ثم رجع مؤيدا منصوراً، فلما وصل الى حماه وصل إليه رسل الخليفة المستضيء بأمر الله ومعه الخلع السنية والتشريفات العباسية، والاعلام السود وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام، وأفيضت الخلع على أهله وأقاربه وأصحابه وأصهاره وأعوانه وانصاره، وكان يوما مشهوداً، واستناب على حماه ابن خاله وصهره ابن الامير شهاب الدين محمود، ثم سار الى حمص فاطلقها لابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، كما كانت لأبيه من قبل، ثم الى بعلبك، ثم الى البقاع، ثم الى دمشق في ذي القعدة من هذه السنة.

وفي المرآة : لما دخل السلطان صلاح الدين دمشق في مجيئه من مصر التقاه أهل دمشق بأسرهم، ونثروا عليه الدراهم والدنانير، وأحسن صلاح الدين إلى ابن المقدم والقاضي ابن الشهرزوري، ومشى إلى دار كمال الدين فانزعج وخرج إلى لقائه، ودخل صلاح الدين فجلس

وباسطه وقال: ياكمال الدين لما كنت في الشحنكية قد كانت بيننا هنات ومشاحنات، وكان كمال الدين يكرهه وكان كل واحد منهما ينقض على الآخر أحكامه، فقال له صلاح الدين: مامشيت إليك إلا لأزيل مافي خاطرك من الوهم وأعرفك أن مافي قلبي لك ماتكره، فطب نفساً وقر عيناً، فالامر أمرك، والبلد بلدك.

وأكثر الشعراء في أخذ صلاح الدين دمشق، ثم كتب إلى الملك الصالح كتاباً تواضع فيه له، وخاطبه بمولانا ابن مولانا، ويقول: إنما جئت من مصر خدمة لأؤدي مايجب من حقوق المرحوم، فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك وتختل أمورك وماقصدي إلا جمع كلمة الاسلام على الافرنج، فعرض كتابه على أرباب دولته وفيهم خالد بن محمد بن القيسراني وغلمان أبيه وابن العجمي، فأشاروا عليه بأن يكاتبه بالغلظة، فكتب إليه ينكر عليه وينسبه إلى كفر النعمة وجحد احسان والده، ووعده وتهدده، وبعث بالكتاب ينال بن حسان صاحب منبج، فأغلظ لصلاح الدين الجواب وقال: السيوف التي ملكتك مصر هي التي تردك، وأشار إلى سيفه، فغضب صلاح الدين وقال: والله لولا أنك رسول لضربت عنقك، والله ماجئت إلى هاهنا شرها ولاطمعاً في الدنيا وفي مصر كفاية، وإنما جئت لاستنقذ هذا الصبي من يد مثلك وأمثالك، فأنتم سبب زوال دولته، ثم طرده بغير جواب، فعاد إلى حلب، واستناب صلاح الدين بدمشق أخاه سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين، وسار إلى حمص فأخذها، وفتح حماه، وسار إلى حلب فاستعانوا عليه بالاسماعيلية وأعطوهم مالاً وضياعاً، فأرسلوا إليه جماعة من فتاكهم، ورآهم ناصر الدين خمار تكين صاحب أبي قبيس، فعرفهم لانه كان مثاغراً لهم، وأنكر عليهم مجيئهم، وسبق إلى خيمة صلاح الدين ليخبره فأدركوه على باب الخيمة، ثم أرادوا الهجوم على صلاح الدين، وكان أمير جندار سيف الدين طغرل هناك، فجذب سيفه وقتل واحداً منهم، واجتمع الغلمان على الباقين فقتلوهم، ورحل صلاح الدين عن حلب في

أول رجب وجاء إلى حمص، ثم نازل بعلبك فأخذها في رمضان من الخادم يمن الريحاني، ووصل عسكر الموصل إلى حلب وانضاف إليهم عسكر حلب، ونزلوا على تل السلطان، فساق عليهم صلاح الدين وبغتهم، وكان مقدمهم عز الدين مسعود أخو سيف الدين غازي، فكسرهم كسرة عظيمة وانهزموا إلى حلب، وغنم أثقالهم، وأسر أبطالهم، وجاء فحصر حلب وهذه هي المرة الثانية من حصار حلب، والمرة الاولى من كسرة المواصلة، ورجع صلاح الدين فنزل بارين، وأخذها من ابن الزعفراني، وكان من أكابر أمراء نور الدين، ولقبه فخر الدين واسمه مسعود، واعطى مدينة حماة لخاله وقيل لابن خاله وصهره ابن شهاب الدين محمود، وأعطى حمص لناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه.

وقال ابن أبي طي: بلغ السلطان أن ابن المقدم نقض عهد السلطان الملك الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين من الموصل، واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح في ممالكه، وقيل ان ابن المقدم كتب إلى السلطان ودعاه إلى الخروج، وقيل إنما خرج إلى الشام خوفاً من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام وشغل بعضهم ببعض.

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بقعتها، نشر علم العدل والاحسان، وعفى آثار الظلم والعدوان، وأبطل ماكان الولاة استجدوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمؤن والضرائب المحرمات(١٩).

وقال صاحب الروضتين: وكان قد كتاب إليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان أولها:

تهن أطول الملوك يدا
في بسط عدل وسطوة وندا

لاتستقـــل الـــذي صنعـــت فقـــد
قمـــت بفـــرض الجهـــاد مجتهـــدا
وجســـت أرض العـــدا وأفنيـــت مـــن
أبطـــالهم مـــا يجاوز العـــددا
ومـــا رأينـــا غـــزا الفـــرنـــج مـــن الـــ
ـــملوك في عقـــر دارهـــم أحـــدا
فسر إلى الشـــام فـــالملائكـــة
الابـــرار يلقـــاك جمعهـــم مـــددا
فهـــو فقير إليـــك يـــأمـــل أن
يصلـــح بـــالعـــدل منـــه مـــا فســـدا
واللـــه يعطيـــك فيـــه عـــاقبـــة النصر
كما في كتـــابـــه وعـــدا
فما حبـــاك الـــورى وألهمـــك العـــدل
وأعطـــاك مـــا ملكـــت ســـدى

ومدح وحيش الاسدي صلاح الدين عند أخذه دمشق بقصيدة أولها هو قوله:

قـــد جاءك النصر والتـــوفيـــق فاصطحبـــا
فكـــن لأضعـــاف هـــذا النصر مـــرتقبـــا
للـــه أنـــت صـــلاح الـــديـــن مـــن أســـد
أدنـــى فـــريســـة الايـــام إن وثبـــا
رأيـــت جلـــق بعـــز لا نظير لـــه
فجئتهـــا عـــامـــراً منهـــا الـــذي خـــربـــا
نـــادتـــك بـــالـــذل لما قـــل نـــاصرهـــا
وأرفـــع الخلـــق مـــن أوطـــانها هـــربـــا
أحييهـــا مثلما أحييـــت مصر فقـــد
أعـــدت مـــن عـــدلها مـــا كـــان قـــد ذهبـــا
هـــذا الـــذي نصر الاســـلام فـــاتضحـــت
سبلـــه وأهـــان الكفـــر والصلبـــا

ويـــوم شـــاور والايمان قـــد هـــزمـــت
جيـوشـــه كـــان فيـــه الجحفـــل اللجبـــا
ويـــوم دميـــاط والاسكنـــدريـــة قـــد
أصـــارهـــم مثـــلاً في الارض قـــد ضربـــا
والشـــام لـــو لم يـــدارك أهلـــه انـــدرســـت
آثـــاره وعفـــت آيـــاتـــه حقبـــا

ولما نزل السلطـان صلاح الـدين على حلب أشير على ابـن نور الـدين أن يجمع أهـل حلب في الميدان، ويقبل عليهـم بنفسه ويخاطبهم بلسـانه أنهم الـوزر والملجـأ، فـأمـر أن ينـادى بـاجتماع النـاس إلى ميـدان بـاب العراق، فـاجتمعوا حتى غـص الميدان بالناس، فنـزل الصالح مـن باب الـدرجة، وصعـد من الخنـدق، ووقف في رأس الميـدان من الشمال وقـال لهم: ياأهل حلب أنـا ربيبكم ونزيلكم، واللاجىء إليكـم، كبيركم عندي بمنـزلة الاب وشـابكـم عندي بمنـزل الاخ، وصغيركـم عندي حـل محل الـولد، وخنقتـه العبرة، وسبقتـه الـدمعة وعـلا نشيجـه، فـافتتن النـاس، وصاحوا صيحـة واحدة، ورموا بعمائمهم، وضجـوا بالبكاء، وقالـوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك نقـاتل بين يديك، ونبذل أموالنـا وأنفسنا لك، وأقبلوا على الدعاء لـه والترحم على أبيه، وكانـوا قد اشترطوا على الملك الصـالح أن يعيـد إليهـم شرقية الجامـع يصلـون فيهـا على عادتهم القـديمـة، وأن يجهروا بحـي على خير العمل، والاذان والتذكير في الاسواق وقـدام الجنائز بـأسماء الائمة الاثنـي عشر، وأن يصلوا على أمـواتهم خمس تكبيرات، وأن تكـون عقـود الانكحة الى الشريـف الطـاهـر أبي المكارم حمزة بـن زهـرة الحسينـي، وأن تكون العصبيـة مرتفعـة، وأشيـاء كثيرة اقترحوهـا مما كـان أبطله نور الدين رحمه الله، فأجيبوا إلى ذلك.

وقال ابن أبي طي: فأذن المؤذنـون في منارة الجامع وغيره بحي على خير العمل، وصلى أبي في الشرقيـة مسبلاً، وصلى وجوه الحلبيين خلفـه، وذكروا

في الأسواق، وقدام الجنائز بأسماء الائمة الاثني عشر، وصلوا على الاموات خمس تكبيرات، وأذن للشريف في أن تكون عقود الحلبيين من الامامية إليه وفعلوا جميع ماوقعت الايمان عليه.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن السلطان صلاح الدين استخدم في هذه السنة العماد الكاتب، وسببه أنه التقى القاضي الفاضل على حمص ومدحه بأبيات من الشعر، فدخل الفاضل على صلاح الدين وقال له: غدا تأتيك تراجم الاعاجم ومايحلها مثل العماد، فقال: مالي عنك مندوحة، أنت كاتبي ووزيري، وقد رأيت على وجهك البركة، فإذا اسكتبت غيرك تحدث الناس، فقال الفاضل: هذا يحل التراجم، وربما أغيب أنا ولا أقدر على ملازمتك فإذا غبت قام مقامي فاستكتبه.

وقال العماد: وأول ماأهديته للفاضل مدحة حين لقيته بحمص في شعبان من هذه السنة بقصيدة منها قوله:

عاينت طود سكينة ورأيت شمـ
ـس فضيلة ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة ساحبا
ببيانه ذيل الفخار كوائل
أبصرت قساً في الفصاحة معجزاً
فعرفت أني في فكاهة باقل
حلف الحصافة والفصاحة والسما
حة والحماسة والتقى والنائل
بحر من الفضل الغزير خضمه
طامي العباب ومالـه من ساحل
وجميع ما في الارض سبعة أبحر
وبحوره تسمى بعشر أنامل

في كفـــه قلـــم يعجـــل جـــريـــه
مـــا كـــان مـــن أجـــل ورزق آجـــل

الأبيات:

ومنها أن أخا السلطان المعظم شمس الدولـة تورانشاه بن أيوب وصل من اليمن الى دمشق وأقام بها مدة، ثم حضر الى الديار المصرية.

ومنها أن في غيبة صـلاح الدين بالشام اجتمعـت بالقاهرة طـائفة من جند الارمـن والاسماعيلية وجند المصريين، وغلمان العادل أبي بكـر، ونادوا بشعار أبي طـاهر بن العـاضد، فلما سمع العـادل بذلك أوقـع بهم وقتل منهم جماعة، واعتقـل جماعة، ونفى آخرين، وكان الـذي حملهم على ذلك الشريف ابن هانىء...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلـت هـذه السنة والخليفـة هـو المستضيء بـأمر اللـه، والسلطـان صلاح الـدين مقيـم بمرج الصفر، فجـاءه رسول الفـرنج يطلـب الهدنة، فأجابهم السلطان بعـد أن اشترط عليهم السلطان أموراً فالتزمـوها، وكان الشام ذلـك العام جدبـاً، فأذن السلطان للعساكـر المصرية بالـرحيل إلى بلادهـم، وإذا استغلوا خرجوا إليـه، وسار معهم الفاضـل، واعتمد على العماد فيما كـان بصدده، وواظـب السلطـان على الجلوس في دار العـدل، وعلى الصيد ومدحه العماد بقصيدة منها:

ســـواك لسهـــم العلى لـــن يـــريشـــا
فنســـــأل رب العلى أن تعيشـــــا
مـــن النـــاس بـــالبر صـــدت الكـــرام
وبـــالبـــاس في البر صـــدت الـــوحـــوشـــا

وكـم سرت مـن مصر نحـو العـريـش
فهـدمـت للمشركين العـروشـا
سرايـاك تبعـث قـدامهـا
مـن الـرعـب نحـو الاعـادي جيـوشـا
ويـوم حماة تـركـت العـداة
كما طيرت بـالفـلا الـريـح ريشـا

ذكر الحرب بين السلطان صلاح الدين وبين غازي بن مودود صاحب الموصل

وأصل ذلـك أن غازي هذا الـذي هو ابن أخـي نور الديـن كتب إلى جماعة الحلبيين يلومهم على ماوقع بينهـم وبين السلطان صلاح الدين من المصالحة، وأرسـل رسولاً إلى صلاح الديـن، ودفع له كتـابين: أحدهما إلى صلاح الـدين ليأخـذ منه عهدا للمواصلـة ويكشف ماعنـده، والكتاب الثـاني إلى الحلبيين يلـومهـم على الصلـح ويخبرهم أنـه واصـل بعسـاكـر الشرق، ولما دخل الـرسول على صلاح الـدين غلط ودفـع كتاب الحلبيين إليـه، وذلك لسعـادة صـلاح الـدين، فتـأملـه صـلاح الديـن وعلـم أن الرسول غلط، فلم يقل له شيئاً، وفهم الرسول، فقام وخرج من عنده ولم يمكنه الاستدراك، وكتـب صلاح الدين إلى مصر إلى أخيـه الملك العادل أبي بكر بتجهيز العساكر المصرية إلى الشـام بسرعة، وجمع غازي العساكر من الجزيرة، وكان أخوه عماد الدين زنكـي صاحب سنجار عاصياً عليه، مائلا لصـلاح الديـن، فصالحه، وكان أخـوه عز الـدين مسعـود وعسكره انهزموا في العام الماضي، لما التقـوا بصلاح الدين ــ كما ذكرناه ـ فصـالح غـازي فـاجتمع معـه عسكـر كثير، عـدتـه ستة آلاف فـارس، وسـار إلى نصيبين في ربيع الاول، وأقـام بها حتى انقضـى الشتاء، فضجـر العسكر وفنيـت نفقاتهم، فصـار العـود الى بيوتهم مـع الهزيمـة أحـب إليهم مـن الظفر، ثم سار الى حلـب والتقاه الملك الصالح بن نور الـدين، فاعتنقه

سيف الدين غازي، وبكى ونزل بظاهر حلب بعين المباركة، وصعد القلعة جريدة، وكان أمراء حلب يركبون كل يوم الى خدمته.

وفي تاريخ النويري: وكان غازي في عشرين ألف مقاتل، ثم رحل إلى تل السلطان، ومعه هؤلاء العساكر: عسكر الشرق، وديار بكر، والحلبيون، وبلغ صلاح الدين وهو بدمشق، ولم يكن عنده سوى ستة آلاف فارس، كذا في المرآة.

وفي تاريخ النويري: وسار صلاح الدين نحوهم ومعه ألف فارس، ولكن الجيوش قد خرجت من الديار المصرية وفي جحافل كالجبال ووصل الى حماة، ونزل بها، وترك أثقاله بها، وساق الى جباب التركمان، وجاءه رسول الحلبيين بأنهم يخوفونه بأسهم، ويأمرونه بالرجوع إلى أن قال رسولهم: فوافيته وهو في خيمة صغيرة، وهو على بساط، وتحته سجادة، وبين يديه مصحف وهو مستقبل القبلة، وإلى جانبه زرديته وسيفه بين يديه، وقوسه وتركاشه معلق في عمود الخيمة، قال: فلما رأيته وقع في خاطري أنه المنصور، لأني فارقت سيف الدين غازي والأمراء وهم على طنافس الحرير والخمور تروق وليس في خيامهم خيمة الا وفيها أنواع المحرمات، فأديت إليه الرسالة، وجاء وقت الظهر فضج العسكر لصوت الاذان، وفي كل خيمة إمام، فقال لي: الحق بأصحابك وقل لهم يستعدون للقائي فإني عند طلوع الشمس نازل عليهم و﴿يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ [الاعراف ٨٧].

قال: ففارقته وأنا على بصيرة من نصرته وخذلانهم، وسقت عامة الليل فوافيتهم وقت الفجر وهم سكارى، فطلبت سيف الدين غازي فقيل لي: هو نائم، قال: فوالله ماانبسطت الشمس الا واعلام صلاح الدين قد أقبلت والكوسات تخفق وأصحابنا نيام، فقاموا مسرعين، وكان يوم الخميس العاشر من شوال، وكانت ملاقاتهم على تل السلطان، وكان

على ميمنة السلطان صلاح الدين ابن خاله شهاب الدين محمود، وعلى ميسرته صاحب بصرى، وهو في القلب، وكان في ميمنة المواصلة مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، وعلى ميسرتهم الحلبيون وسيف الدين غازي في القلب.

وفي المرآة: وكان صلاح الدين قد وقف على تل عال فحمل ابن زين الدين فطحن ميسرة صلاح الدين، وحمل الحلبيون على ميمنته فتعتعوها، ونزل صلاح الدين من التل، ورأى أن يباشر الامر بنفسه، وإلا اختل الامر، فساق عليهم، واتفق وصول العساكر المصرية في تلك الساعة مع تقي الدين عمر، وعز الدين فرخشاه، وناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، فهال ذلك الحلبيين من دق الكوسات وحسن الاطلاب، والعدد الوافرة، والخيل العربية، فانخذلوا وولوا منهزمين.

وفي تاريخ النويري: وحمل السلطان صلاح الدين بنفسه الكريمة، فكانت باذن الله الهزيمة، فقتلوا من الحلبيين والمواصلة خلقاً، وأخذت مضارب سيف الدين غازي وحواصله وأسر جماعة من رؤوسهم، فأطلقهم السلطان بعد أن خلع عليهم، وقد كانوا استعانوا بجماعة من الافرنج في حال القتال، وليس هذا من صنيع الصناديد.

وفي تاريخ بيبرس: وكان غازي قد سبق، ووصل صلاح الدين وقت العصر، وقد تعب هووأصحابه وعطشوا، فألقوا نفوسهم على الارض ليس فيهم حركة، وأشار على غازي جماعة من أصحابه بقتالهم في تلك الساعة، فتأخر إلى الغد، فلما التقوا من الغد انكسر عسكر سيف الدين ورجع إلى حلب، ولم يقتل من الفريقين مع كثرتهم سوى رجل واحد، وترك سيف الدين أخاه عز الدين مسعود بحلب، وسار إلى الموصل وهو يظن أنه لاينجو، وأن صلاح الدين يعبر الفرات إليه ويقصده بالموصل، فاستشار وزيره في مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة الحميدية

فمنعه من ذلك، وثبت قلبه، وعزل عز الدين عن إمارة العسكر، واستعمل مكانه مجاهد الدين قايماز.

وفي تاريخ النويري وغيره: ووجد السلطان صلاح الدين في مخيم غازي شيئا من الاقفاص التي فيها الطيور المطربة وذلك في مجلس شرابه، وكيف ينصر من كان هذا مسلكه، ومذهبه، فأمر صلاح الدين بردها عليه وقال للرسول: قل له: اشتغالك بهذه الطيور أحب إليك من الوقوع فيما رأيت من المحذور، وغنم السلطان من أموالهم شيئا كثيرا، ففرقه على أصحابه وأنعم بخيمة الملك سيف الدين غازي على ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، ورد وطاقه من الجواري والمغنيات، وقد كان معه أكثر من مائة مغنية، ورد الاقفاص وآلات اللعب الى حلب، وقال: قولوا له: هذه أحب إليك من الحرب، ووجد عسكر المواصلة كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والملاهي.

وفي المرآة: ولما انهزم غازي ومن معه ساق صلاح الدين وراءهم وأسر أمراءهم، ونجا غازي بنفسه، وعاد صلاح الدين إلى خيامهم، فوجد سرادق سيف الدين غازي مفروشا بالرياحين والمغاني جلوس في انتظاره، والخمور تروق، ومطابخه بقدورها، وفيه أقفاص الطيور فيها أنواع من القماري والبلابل والهزارات، ثم فرق صلاح الدين الخزائن والخيل والخيام على أصحابه، وأعطى عز الدين فرخشاه سرادق سيف الدين، وكان عز الدين قد أبلى في ذلك اليوم بلاءا حسناً.

ذكر ماجرى لصلاح الدين بعد انتصاره:

قال النويري: لما رجع الحلبيون الى حلب وهم منهزمون ندموا على نقضهم الايمان، ومخالفتهم لطاعة الرحمن، وشقهم العصا على السلطان، وتحصنوا بالبلد خوفاً من وثوب الاسد ابن أخي الاسد، وأسرع صاحب

الموصل فوصلها وماصدق حتى دخلها، وأما السلطان صلاح الدين فإنه لما فرغ من قسمة ماغنم أسرع المسير إلى حلب، فوجدهم قد حصنوها والقلعة قد أحكموها، فقال: من المصلحة أن نبادر إلى فتح الحصون التي حول البلد، ثم نعود إليهم فلا يمتنع علينا أحد منهم، فشرع يفتح الحصون حصنا حصنا ويهدم من أركان دولتهم ركنا ركنا، ففتح بزاعة ثم سار إلى أعزاز، فأرسل الحلبيون إلى سنان مقدم الفداوية، فأرسل جماعة من أصحابه ليقتلوا صلاح الدين، فدخلت طائفة منهم في زي الجند، فقاتلوا أشد القتال حتى اختلطوا بهم، ثم وجدوا فرصة ذات يوم والسلطان ظاهر للناس فحمل عليه واحد منهم فضربه بالسكين على رأسه، فإذا هي باللامة فسلمه الله، غير أن السكين مرت على خده فجرحته جرحاً هيناً، ثم أخذ الفداوي رأس السلطان ليذبحه، ومن حوله قد أخذتهم دهشة، ثم ثاب إليهم عقلهم فبادروا إلى الفداوي فقتلوه وقطعوا رأسه، ثم هجم آخر في الساعة الراهنة على السلطان فقتل ثم هجم آخر على بعض الامراء فقتل أيضاً، وهرب الرابع فأدرك فقتل، وبطل القتال ذلك اليوم، ثم صمم السلطان على البلد ففتحه وأقطعه ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وقد اشتد حنقه على أهل حلب لما أرسلوا من الفداوية، وجاء فنزل تجاه البلد على جبل جوشن، وضرب خيمته على رأس اليساروقية وذلك في خامس عشر ذي الحجة من هذه السنة، وجبى الأموال وأخذ الخراج من القرى ومنع أن يدخل البلد شيء أو يخرج منها شيء واستمر حصاره، إياها حتى انسلخت هذه السنة.

وفي تاريخ بيبرس: لما انهزم غازي وغنم صلاح الدين وعسكره ثقله وثقل عسكره، سير طائفة إلى بزاعة فحصروها وقاتلوا من بها وأخذوها، ورتب بها من يحفظها، وسار إلى منبج فملكها عنوة وأخذ صاحبها أسيراً، وكان بينه وبين صلاح الدين عداوة قديمة، وهوقطب الدين ينال ابن حسان المنبجي، ثم أطلقه فسار إلى الموصل فأقطعه سيف الدين

غازي الرقة، ثم دخل إلى أعزاز فنازلها وحصرها وهي من أحصن القلاع، وقتل عليها كثير من العسكر، ثم ذكر حكاية الفداوية كما ذكرناها.

وفي المرآة: لما نزل صلاح الدين على منبج وبها قطب الدين ينال بن حسان، فقاتله واتفق وقوع ثلمة في السور، فطلب الامان لنفسه، فآمنه فخرج سليباً وأخذ صلاح الدين من الحصن ثلاثمائة ألف دينار، وعرض عليه المقام عنده فامتنع، وسار الى صاحب الموصل، كما ذكرناه، ثم سار السلطان ففتح حصن بزاعة، ثم نازل أعزاز فأقام عليها ثمانية وعشرين يوماً، وفتحه في ذي الحجة من هذه السنة.

وفي تاريخ الدولتين: وهنأ العماد الكاتب السلطان بقصيدة منها:

فالحمد لله الذي أفضاله
حلوا الجناعلى السناوضاحه
عاد العدو بظلمه في ظلمة
في ليلة ويل قد خبا مصباحه
وجنى عليه جهله بوقوعه
في قبضة البازي فهيض جناحه
حمل السلاح الى القتال ومادرى
أن الذي يجني عليه سلاحه

وقال: وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الوقعة يد بيضاء.

وقال العماد: نظمت قصيدة والابيات منها:

نصر أنار لملكهم برهانه
وعلا لذلة شانيكم شانه
ما أسعد الاسلام وهو مظفر
وأبوا المظفر يوسف سلطانه
الملك مرفوع لكم مقداره
والعدل موضوع بكم ميزانه

والـــدهـــريـــأتي بغير مـــرادكـــم
فعلى القضـــاء لأجلكـــم جـــريـــانـــه
فكـــأنما اللـــه في أحكـــامـــه
فلـــك على ايثـــاركـــم دورانـــه
فخـــراً بنـــي أيـــوب إن فخـــاركـــم
بـــذ الملـــوك الســـابقين رهـــانـــه
يكفـــي حســـودكـــم اعتقـــالاهمه
فكـــأنما أشجـــانـــه أشجـــانـــه
الـــديـــن عـــز الـــديـــن عـــز بنصركـــم
والكفـــر ذل بعـــونكـــم أعـــوانـــه
قـــد كـــان جيشهـــم كبحـــر زاخـــر
والـــلابســـون جـــواشنـــا حيتـــانـــه

الأبيات:

وقال العماد أيضاً في فتح منبج قصيدة منها قوله:

نـــزولـــك في منبـــج
على الظفـــر المبهـــج
ونجحـــك في المرتجي
وفتحـــك للمـــرتـــج
دليـــل علـــى نجـــح مـــا
تحاول أو تـــرتجي
أمـــورك فيما تـــروم
واضحـــة المنهـــج
وشـــانيـــك دامـــي الشـــؤ
ون منـــك شقـــي شجـــي

وقال ابن أبي طي: لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصن صعد إليه، وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره، فكان في جملة أمواله

ثلاثمائة ألف دينار، ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ماينـاهز ألفي ألف دينار، فحان من السلطان التفاته فرأى مكتوباً على الاكياس والآنية يوسف، فقيل له ولد يؤثره ويحبه اسمه يوسف كان يدخر هذه الأموال له، فقال السلطان: أنا يوسف، وقد أخذت ماخبىء لي، فتعجب من ذلك.

وقال العماد أيضاً قصيدة في فتح أعزاز منها:

أعطاه رب العالمين دولة
عزة أهل الدين في اعزازها
حاز العلى بيباسه وجوده
وهو أحق الخلق باحتيازها

إلى أن قال:

تهن من فتح عزاز نصرة
أوقعت العداة في اعتزازها
واليوم ذلت حلب فإنها
كانت تنال العز من عزازها
وحلب تنفي كمشتكينها
كما انتفت بغداد من قيمازها

ذكر بقية الحوادث:

منها: أنه في رمضان قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب من اليمن إلى الشام وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصلة وكسرتهم، وكان شمس الدولة هو سبب الظفر وأعطاه السلطان سرادق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات، وولاه دمشق وأعمالها والشام وأمره أن يكون في وجه الفرنج، لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج على عادتهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثانية والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والسلطان صلاح الدين صاحب مصر والشام محاصر لحلب، وقد ضجر الناس من طول الحصار، فترددت الرسل بينهم، وتقررت القاعدة بين صلاح الدين والملك الصالح ابن نور الدين، وسيف الدين غازي صاحب الموصل، وصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين، وتحالفوا أن يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر.

وقال ابن كثير: وكان صلاح الدين قد أشرف على أخذ حلب فسألوه الصلح فصالحهم على أن تكون حلب وعملها للملك الصالح بن نور الدين فقط، وكتب بذلك الكتاب، فلما كان المساء بعث الملك الصالح إلى صلاح الدين يسأل منه زيادة قلعة عزاز، وأرسل بأخت له صغيرة وهي الخاتون بنت نور الدين ليكون ذلك أدعى إلى قبول السلطان سؤاله، فحين رآها صلاح الدين قام قائماً وقبل الارض وأجابها إلى سؤالها، وأطلق لها من الجواهر والتحف شيئا كثيرا.

ذكر رحيل صلاح الدين عن حلب:

ولما تعاقدوا على ماذكرنا رحل صلاح الدين عن حلب يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم، وقصد بلد الاسماعيلية الذين اعتدوا عليه، فحاصر حصنهم مصيات، فقتل وخرب وسبى حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة، لأنهم جيرانه، فقبل شفاعته، وقد أحضر إليه نائب بعلبك الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم، الذي كان نائب دمشق جماعة من أسارى الافرنج الذين عاثوا بالبقاع في غيبة السلطان واشتغاله بحصار مصيات، فجدد

له العزم على غزو الافرنج، فصالح الاسماعيلية أصحاب سنان ثم كر راجعاً إلى دمشق.

وفي تاريخ الدولتين: وكان الأسرى أكثر من مائتي أسير، وقال ابن أبي طي: وكان أكبر الدواعي في مصالحة صلاح الدين لسنان مقدم الاسماعيلية وخروجه من بلادهم خوفه من الفرنج أن يهيجوا في الشام الأعلى وهو بعيد عنه، فربما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سنانا وعاد إلى دمشق.

وقال العماد: وكان خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الافرنج على الخروج، وباسطهم عند عين الجر في تلك المروج، ووقع من أصحابه عدة في الاسار منهم سيف الدين أبو بكر السلار، ووصل السلطان إلى حماه واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفر وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر، وتعانق الاخوان في المخيم بالميدان..... قال: ثم سرنا إلى دمشق ووصلنا إليها سابع عشر صفر، وفوض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظم شمس الدولة، وعزم إلى مصر السفر... وفي هذا الشهر تزوج صلاح الدين بالست خاتون عصمة الدين بنت معين الدين أنر، وكانت زوجة الملك نور الدين الشهيد رحمه الله، فأقامت بعده في القلعة محترمة مكرمة، وولي تزويجها منه أخوها الامير سعد الدين مسعود بن أنر، وحضر القاضي ابن أبي عصرون العقد ومعه جماعة من العدول، وبات السلطان عندها تلك الليلة والليلة التي بعدها ثم سافر إلى مصر بعد يومين من الدخول بها.

ذكر توجه صلاح الدين من دمشق إلى مصر:

خرج من دمشق يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول، ونزل بمرج الصفر ثم رحل عنه قبل العصر إلى قريب الصنمين.

-١١٢١٢-

ذكر دخول صلاح الدين القاهرة:

دخل السلطان صلاح الدين القاهرة يوم السبت السادس عشر من ربيع الأول، وتلقاه أخوه الملك العادل سيف الدين إلى عند بحر القلزم ومعه من الهدايا والتحف شيء كثير، ولاسيما من المآكل المتنوعة.

ذكر ماصدر من صلاح الدين بعد دخوله القاهرة:

من ذلك أنه أمر ببيع الكتب في القصر كل اسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان، وكانت كتب كثيرة جداً، قالوا إنها كانت أكثر من مائة ألف مجلد، وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الأمصار مايشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين مجلداً، وكانت خزائن مملوءة بها في القصر، وكان الحاكم على القصر ومتولي أموره الأمير بهاء الدين قراقوش، ولما حضرت الناس للشراء، كان الدلالون يخرجون عشرة من كل فن، كتباً مميزة وتباع بالهون، وتسام بالدون، وربما كان دلال يشارك مع واحد فتقوم عنده بعشرة ثم بعد ذلك يبيعونه بمائة.

قال العماد: ولما رأيت الامر حضرت واشتريت كما اشتروا، واستكثرت من ذلك، ولما عرف السلطان بذلك، وكان بمئين، أنعم بها عليّ، وأبرأ ذمتي من ثمنها، ثم وهب لي أيضاً من خزانة القصر ماعينت عليه من كتبها، ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر وهو ينظر في بعضها، وقال: كنت طلبت كتباً عينتها، فهل في هذه منها شيء؟ فقلت كلها وما استغني عنها فأخرجتها من عنده بحمال، وكان هذا بالنسبة إلى جوده أقل نوال.

ومن ذلك أنه أمر ببناء سور على مصر والقاهرة، ودور السور تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة ذراع بالهاشمي.

وفي تاريخ الدولتين: ولما تملك السلطان مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لايمنعها، وقال: إن أفردت كل واحدة بسور أحتاج إلى جند مفرد يحميها، وإني أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطىء إلى الشاطىء، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم.

وقال العماد: ومبلغ السور وهو دائر بالبلدين: مصر والقاهرة، بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة وذراعان، من ذلك مابين قلعة المقسم على شاطىء النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعاً، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ودائر القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع، وذلك طول قوسه في أبراجه وأبدانه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع الهاشمي بتولي الأمير شهاب الدين قراقوش الأسدي، وبنى القلعة على الجبل وقطع الخندق وحفر واديه، وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها، ودخلت في الجملة، وحفر في رأس الجبل بئر ينزل فيها بالدرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين، وتوفي السلطان وقد بقي من السور مواضع، والعمارة مستمرة، ووظائف نفقاتها مستدرة.

ومن ذلك أن السلطان رحمه الله أمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية، ورتب قواعدها، وتولاه الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني، وأمر أيضاً باتخاذ دار في القصر بيمارستاناً للمرضى ووقف على المدرسة والبيمارستان وقوفاً كثيرة.

- ١١٢١٤ -

ذكر خروج صلاح الدين إلى الاسكندرية:

ثم إن السلطان صلاح الدين خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، واستصحب معه ولديه الافضل عليا والعزيز عثمان، وجعل طريقه على دمياط فأقام بظاهرها يومين، ثم وصل إلى ثغر الاسكندرية.

قال العماد: وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد ابن محمد السلفي، وسمعنا عليه ثلاثة أيام :الخميس والجمعة والسبت رابع عشر شهر رمضان. قال: وشاهدنا مااستجده السلطان من السور الدائر ومانصرفنا حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الاسطول.

وقال ابن أبي طي: ولما نوى السلطان المقام بالاسكندرية ليصوم فيها، رأى ان لايخلي نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين، فرأى الاسطول وقد اخلقت سفنه وتغيرت آلاته، فأمر بتعمير الاسطول وجمع له الأخشاب والصناع أشياء كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السلاح والعدد مايحتاج الاسطول إليه، وشحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له اقطاعا مخصوصا وديوانا مفردا، وكتب الى سائر البلاد المصرية بقبول قول صاحب الاسطول وأن لايمنع من أخذ رجاله ومايحتاج إليه، وأمر صاحب الاسطول أن لايبارح البحر، ويُغزى إلى جزائر البحر.

ذكر مجيء الرسل إلى صلاح الدين:

وفيها وصلت الرسل إلى السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب، وهم رسول سيف الدين صاحب الموصل، ورسول صاحب حصن كيفا، ورسول صاحب ماردين، فأولا جاءوا الى دمشق فاستوثقوا

بتحليف أخي السلطان صلاح الدين وهوشمس الدولة تورانشاه بن أيوب، ثم قصدوا مصر، ووقع رسول صاحب الحصن في الأسر.

وقال ابن أبي طي: وصل رسول صاحب الموصل القاضي عماد الدين ابن كمال الدين الشهر زوري بهدية وقود، فخرج الموكب إلى لقائه وأكرمه السلطان واحترمه وقدم بعده رسول نور الدين قرا أرسلان، ورسول صاحب ماردين بهدايا، واجتمعوا في دمشق وخرجوا إلى السلطان بمصر فاعترضهم الفرنج، وأسر رسول صاحب الحصن ولم يزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان فأطلقه وأحسن إليه.

ذكر خروج صلاح الدين إلى مرج فاقوس من أعمال مصر:

قال العماد: ثم خرج السلطان إلى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية لارهاب العدو، وهو يركب للصيد والقنص، ويتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص.

وقال في الخريدة : كنا مخيمين على مرج فاقوس مصممين على الغزاة إلى غزة، وقد وصلت أساطيل ثغري دمياط والاسكندرية تسبي الكفار، وقد أوفت على ألف رأس عدة من وصل في قيد الاسار، وسنذكر خروجه في الغزاة في السنة الآتية إن شاء الله.

وفي هذه السنة أبطل صلاح الدين الذي كان يؤخذ من الحج بجده مما يحمل في البحر، وعوض صاحب مكة عنها في كل سنة ثمانية آلاف اردب قمحا تحمل إليه في البحر ويحمل مثلها فتفرق في أهل الحرمين.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن صاحب المرآة ذكر أن في هذه السنة كانت نوبة الكنز مقدم

السودان بالصعيد، جمع كل أسود بالصعيد، وسار إلى القاهرة في مائة ألف ليعيد الدولة المصرية، فخرج إليه الملك العادل سيف الدين أبو بكر، وأبو الهيجاء الهكاري، وعز الدين موسك، والتقوا فقتل الكنز ومن معه، ويقال إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفاً، وعادوا إلى القاهرة.

ومنها ماذكره في المرآة أنه خرج الفرنج إلى بقاع بعلبك، وكان شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بها، فخرج وكمن لهم في الشعاري والغياض وأوقع بهم وقتل وأسر نحو مائتي رجل.

ومنها أن الروم قصدت بلاد قليج أرسلان بن مسعود في جمع من الحشود فالتقاهم وكسرهم وقتل منهم جماعة وأسر أسرى كثيرين، وبعث برؤوس القتلى وببعض الأسرى إلى الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين.

ومنها أنه عصى شهاب الدين محمد بن نزار صاحب شهرزور على سيف الدين غازي، وكان في طاعته وتحت حكمه وكان سبب ذلك أن مجاهد الدين قايماز كان متولي مدينة إربل، وكان بينه وبين ابن نزار عداوة فأرسل إليه وزير سيف الدين كتابا حسناً يأمره بالعود إلى الطاعة، والرجوع عن المخالفة والمعصية، فلما وصل الكتاب إليه بادر إلى الحضور للخدمة السيفية بالموصل فأوجب ماجرى من ابن نزار.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

قاضي القضاة الشهرزوري: أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله ابن أبي أحمد الشهرزوري، الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي، قاضي القضاة بدمشق، وكان فاضلا ديناً أمينا ثقة ورعاً، ولي القضاء بدمشق لنور الدين محمود بن زنكي، واستوزره أيضاً فيما حكاه ابن الساعي، قال: وكان يبعثه في الرسائل، كتب مرة على أعلى القصة: محمد بن عبد

الله الرسول، فكتب الخليفة تحت ذلك: صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن كثير: وقد فوض إليه نور الدين نظر الجامع ودار الضرب، وعمر له المارستان والمدارس وغير ذلك من الأمور.

وقال ابن خلكان: وكانت ولادته سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة بالموصل، وتوفي يوم الخميس سادس المحرم من سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بدمشق، ودفن من الغد بجبل قاسيون، وقال: ولما ملك صلاح الدين الشام أقره على ماكان عليه في أيام نور الدين، وكان شهماً جسوراً كثير الصدقة والمعروف، وقف أوقافا كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق، وبنى بالموصل مدرسة للشافعية ورباطاً بمدينة الرسول عليه السلام، وتولى القضاء بالموصل أيضاً وله نظم جيد، فمن ذلك قوله:

ولقد أتيتك والنجوم رواصد
والفجر وهم في ضمير المشرق
وركبت من أهوال كل عظيمة
شوقاً إليك لعلنا أن نلتقي

وفي المرآة: قدم بغداد وتفقه على أسعد الميهني بالنظامية، وسمع الحديث ببغداد والموصل، وكان رئيس أهل بيته، وولي القضاء بدمشق وحمص وحماة وحلب وجميع الشام في أيام نور الدين وكان إليه أمر المدارس والمساجد والاوقاف والحسبة والأمور الدينية والشرعية، وكان صاحب القلم والسيف، وكانت شحنكية دمشق إليه، ولى فيها بعض غلمانه، ثم ولاها نور الدين لصلاح الدين، وكانت بينهما مضاغنة، وكل واحد منهما ينقض حكم الآخر، فلما كتب إليه صلاح الدين بأن يساعده على أخذ دمشق أعانه وفتح له أبوابها، فلما دخلها صلاح الدين مشى إلى دار كمال الدين، وطيب قلبه، وجاء إلى الشيخ أحمد والد الشيخ أبي عمر شيخ الحنابلة، وأحمد أول من سكن جبل قاسيون، فزاره ومعه ألف دينار، فدفعها للشيخ أحمد فامتنع من أخذها، فاشترى كمال

الدين قرية الهامة بوادي بردى، ووقف نصفها على الشيخ أحمد والمقادسة والنصف الآخر على الاسارى، وهي باقية إلى هلم جرا، ولما مرض كمال الدين وهو بدمشق بلغ ابن أبي عصرون، وهو بحلب، فقدم دمشق ودخل على القاضي كما الدين وعانقه وبكيا، فلما توفي كمال الدين تولى ابن أبي عصرون أمره، وخرج في جنازته ماشياً هو وجميع الملوك مشاه: سيف الاسلام، وتقي الدين عمر، وشمس الدولة وغيرهم وصلى عليه بجامع دمشق وحمل إلى قاسيون فدفن بسفحه قريبا من الجادة عند مسجد البصار، ولم يكن عنده من أولاده أحد، وإنما كان عنده ابن أخيه ضياء الدين أبو الفضائل، وكان كمال الدين قد تصدق بجميع ماكان عنده، وأوصى بماله ووقف أوقافا كثيرة على أبواب البر، وقيل إنه لم يكن له كفن فكفن في احرامه، وأوصى بالقضاء إلى ابن أخيه ضياء الدين مع وجود ولده، وكان لكمال الدين ولد اسمه محمد بن عبد الله، ولقبه محيي الدين، وكان أبوه ضياء الدين قاضيا على حلب، وهو تاج الدين الشهرزوري.

وفي تاريخ الدولتين: ولما مات كمال الدين كان عمره ثمانين سنة.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والسبعين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله العباسي، والسلطان صلاح الدين مخيم بمرج فاقوس ثم عاد إلى القاهرة وأقام بها، ثم قصد أنه يسير الى غزة وعسقلان.

ذكر غز وصلاح الدين عسقلان والرملة:

وفي جمادى الأولى سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى ساحل الشام لغزو الافرنج، فوصل الى عسقلان والرملة في الرابع والعشرين من الشهر فنهب، وتفرق عسكره في الاغارة، وبقي السلطان في بعض

العسكر فلم يشعر الا بالافرنج قد طلعت عليهم، فقاتلهم، وكان لتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه أحمد حسن الصورة لما بدت لحيته، فأمره أبوه تقي الدين بالحملة على الافرنج، فحمل عليهم وقاتلهم وأثر فيهم أثراً كبيراً، فعاد سالماً، فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية، فحمل عليهم فقتل شهيدا، وتمت الهزيمة على المسلمين، وقاربت حملات الفرنج للسلطان، فمضى منهزما الى مصر على البرية ومعه من سلم، فلقوا في طريقهم مشقة وعطشاً شديداً، وهلك كثير من الدواب، وأخذت الفرنج العسكر الذين كانوا تفرقوا للاغارة أسرى، وأسر للملك المظفر تقي الدين عمر ولده شاهنشاه، فبقي عندهم سبع سنين، وقتل ابنه الاخر كما ذكرنا، فحزن على المقتول والمفقود، وصبر تأسيا بأيوب وناح كما ناح داود، وكذلك أسر الفقيهان الاخوان: ضياء الدين عيسى وظهير الدين، وكانا من أكبر أصحاب السلطان صلاح الدين فافتداها السلطان بعد سنتين بسبعين ألف دينار، ووصل السلطان الى القاهرة في نصف جمادى الآخرة.

وفي المرآة: خرج صلاح الدين في جمادى الاخرة من مصر بالعساكر، ونزل على عسقلان، ثم نزل يريدتل الصافية، فازدحمت العساكر على الجسر تريد العبور، فلم يشعروا إلا وقد خالطهم الفرنج، فثبت تقي الدين عمر وقاتل ثم غلب، وقتل من المسلمين خلق كثير وانهزمت عساكر الاسلام، وأسر كثير منهم الفقيه عيسى وغيره، ولولا أن الليل حجز بينهم لم يبق من المسلمين أحد، وسار صلاح الدين في الليل إلى مصر من غير دليل ولاماء ولازاد، وكانت هذه الوقعة من أعظم الوقائع، ونكب صلاح الدين نكبة شديدة وكاد يتلف جوعاً وعطشاً، ونهبت خزائنه وقتل رجاله وأسر أبطاله، وكان مقدم الفرنج أرناط، وكان من أكبر ملوك الافرنج، وما أتلف عسكر المسلمين الا انهم كانوا تفرقوا في الغارات، وكانوا زيادة على عشرين ألفاً، ووقعت الكسرة ومعظمهم لم يعلم، فلما رجعوا من الغارات لم يجدوا صلاح الدين، ولم يكن لهم

حصن يأوون إليه، فدخلوا الرمل وتبعهم الفرنج قتلا وأسرا، ومن سلم منهم مات جوعاً وعطشاً، وكان يوماً عظيماً على الاسلام لم يجبره الا وقعة حطين، ورجع أرناط بجمعه إلى حماه كما نذكره ان شاء الله الآن.

وقال ابن الأثير: كتب صلاح الدين بخط يده إلى أخيه تورانشاه نائبه بدمشق يذكر له الوقعة وفي أوله:

ذكرتك والخطي يخطر بيننا
وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويقول فيه: لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ومانجانا الا الله سبحانه وتعالى منه، إلا لأمر يريد سبحانه(١٩)

ذكر حصر الفرنج حماه: وذلك أنه وصل من الفرنج كند كبير في البحر، فرآى صلاح الدين وقد عاد منهزماً إلى مصر فاغتنم خلو البلاد، وليس بها إلا شمس الدين تورانشاه بن أيوب نائبا عن أخيه، وليس عنده كثير من العسكر، فجمع الكند من بالشام من الفرنج، وفرق فيهم الأموال، وسار الى مدينة حماة وبها شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي خال صلاح الدين، وهو يومئذ مصاب بمرض شديد، وكانت لطائفة من العسكر الصلاحي بالقرب منها، فدخلوا إليها وأغاثوا من بها، وقاتلوا الفرنج قتالا شديداً، ودخل الفرنج البلد، فاجتمع العسكر وأهل البلد وقاتلوهم حتى أزاحوهم منها وأخرجوهم إلى ظاهرها، فساروا الى حارم، واتفقت وفاة شهاب الدين الحارمي على مانذكره إن شاء الله تعالى.

قال العماد: ومن شرط هدنة الفرنج أنه متى جاء ملك من ملوكهم كبير لايمكنهم دفعه، فإنهم يقاتلون معه ويؤازرونه وينصرونه، فإذا انصرف عنهم عادت الهدنة كما كانت، فقصد هذا الملك وجملة الفرنج معه مدينة حماة وصاحبها شهاب الدين مريض، ونائب دمشق ومن معه

من الامـراء مشغولون بلـذاتهم فكادوا يأخذون البلـد، ولكن هزمهـم الله تعالى بعد أربعـة أيام، فانصرفوا إلى حصـن حارم فلم يتمكنوا مـن أخذه وكشفهم عنه الملك الصالح صاحـب حلب، وقد دفع إليهم من الأموال والأسارى ماطلبه الكفرة النصارى.

وقال العماد أيضـاً: ووصل في هذه السنة إلى السـاحل من البحـر كند كبير يقال له اقلندس أكبر طـواغيت الكفر، قلت: هذا هو الـذي ذكرناه الآن، الذي جرى منه ماجرى.

ذكر توجه صلاح الدين الى الشام:

لما سمع السلطـان بنزول الفـرنج على حـارم برز مـن الديـار المصرية قـاصـداً إلى بلاد الشـام لغـزو الفـرنـج، ونـزل في البركة حتـى خـرجـت العساكر، ورحـل من البركة يوم عيـد الفطر بعساكره، ووصـل إلى أيلة في عـاشر الشهـر، واستنـاب أخـاه بمصر الملـك العـادل، وأقـام بها أيضـاً القـاضي الفاضـل بنيـة الحج، وسافـر العماد معـه، ووصل السلطـان إلى دمشق في الـرابع والعشرين مـن شوال وبها أخـوه شمس الدولـة مشغولا بلذاتـه ولهوه، وكان قد بعـث إلى الفرنـج بمال مصانعة، فعـز على صلاح الديـن ولامه وقبـح فعله، وقـال: أنت مشغـول باللعـب وتضييع أمـوال المسلمين، وأقام صلاح الدين بدمشق.

ذكر قبض الملك الصالح صاحب حلب على كمشتكين مدبر دولته:

قـال العماد: وقعت المنـافسـة بين الخلبيين مدبـري الملـك الصالـح ، واستولى على أمـره العدل ابـن العجمي أبـو صالـح، وكان سعـد الديـن كمشتكين الخادم مقـدم العسكـر وأمير المعشر، وهـو صـاحـب حصـن حـارم، وقد حسـده أمثالـه مـن الأمراء والخدام فسلمـوا لابن العجمـي

الاستبداد بتدبير الدولة، فقفز الاسماعيلية يوم الجمعة بعد الصلاة في جامع حلب فقتلوه، واستقل كمشتكين بالأمر فتكلم فيه حساده، وقالوا للملك الصالح: ماقتل وزيرك ومشيرك ابن العجمي إلا كمشتكين فهو الذي حسن ذلك للاسماعيلية، وقالوا له: أنت السلطان وكيف يكون لغيرك حكم أو أمر، فما زالوا عليه حتى قبض عليه، وطالبوه بتسليم قلعة حارم، فكتب إلى نوابه بها وأبوا، فحملوه ووقفوا به تحت القلعة وخوفوه بالصرعة، فلما طال أمره قصر عمره.

ونزل عليه الأفرنج ثم رحلوا بقطيعة بذلها لهم الملك الصالح، واستنزل عنها أصحاب كمشتكين، وولى بها مملوكاً يقال له سرخك.

وقال ابن الأثير: سار الملك الصالح من حلب إلى حارم ومعه كمشتكين، فعاقبه ليأمر من بها بالتسليم، فلم يجب إلى ما طلب منه، فعلقوه منكوساً ودخن تحت أنفه، فمات، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها، ثم إنه أخذها بعد ذلك.

قال ابن شداد: أما الملك الصالح فإنه تخبط أمره، وقبض على كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه، فلم يفعل، فقتله، ولما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها، وذلك في جمادى الآخرة، وقاتل عسكر الملك الصالح العساكر الأفرنجية، ولما رأى أهل القلعة حصرها من جانب الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأخير من رمضان، ولما عرف الفرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم، ثم عاد الصالح إلى حلب، ولم يزل أصحابه على الاختلاف يميل بعضهم إلى جانب السلطان صلاح الدين رحمه الله.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أنه اجتمعت طائفة من الافرنج وقصدوا أعمال حمص، فقتلوا

وأسروا وسبوا، فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه إليهم وسبقهم ووقف على طريقهم مكمنا لهم، فلما وصلوا خرج عليهم هو والكمين، ووضع السيف فيهم، فقتل أكثرهم، ومن سلم منهم لم يفلت إلا مثخنا بالجراح واسترجع منهم جميع ماأخذوه، ورده على أصحابه.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الأمير شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي خال السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، كان من خيار الامراء وشجعانهم، وقد أقطعه ابن أخته حماه حين فتحها، وقد حاصره الفرنج هناك وهو مريض، وكادوا يأخذون البلد ولكن هزمهم الله بعد أربعة أيام كما ذكرنا، فانصرفوا خائبين، وتوفي شهاب المذكور بعد ذلك في هذه السنة، وأعطى صلاح الدين حماه لناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب صهيون، وقيل إنما أعطاها لتقي الدين عمر، وكان ناصر الدين نائباً عنه والله أعلم.

كمشتكين الخادم، خادم نور الدين محمود بن زنكي، وكان من أكابر خدامه ولاه قلعة الموصل نيابه عنه، فلما مات نور الدين هرب إلى حلب، وأقطعه الملك الصالح حارم، وأقام بها وعصى عليه، فلما حصره الفرنج صالحه كما ذكرناه، ثم قتله الملك الصالح كما ذكرناه.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والسلطان صلاح الدين بالشام، وجاءه كتاب من القاضي الفاضل وهو بالديار المصرية يهنيه بولود مولود له وهو أبو سليمان داود، وهو موف لاثني عشر ولداً، وقد ولد بعده عدة ذكور أيضاً، فإنه توفي عن سبعة عشر ولداً

ذكراً، وابنة صغيرة وهي مؤنسة خاتون التي تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد بن الملك العادل كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وذكر هذا في تاريخ الدولتين في السنة الماضية، نقلا عن العماد الكاتب.

وفي رمضان وصلت الخلع السنية من الخليفة إلى السلطان صلاح الدين، وهو بدمشق، وزيد في ألقابه: معز أمير المؤمنين، وخلع أيضاً على أخيه تورانشاه ولقب بمصطفى أمير المؤمنين.

وفي هذه السنة أسقط صلاح الدين المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة، وقد كان يؤخذ منهم شيء كثير، ومن عجز عن أدائه حبس، وربما فاته الوقوف بعرفه، وعوض السلطان أميرها بمال يحمل إليه من مصر وبغلال في كل سنة ثمانية آلاف اردب ليكون عوناً له ولاتباعه، وقرر أيضاً قدر ذلك للمجاورين يحمل إليهم في كل سنة.

ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين رحمه الله:

وفيها عصى شمس الدين بن المقدم ببعلبك، وكان صلاح الدين قد أعطاه إياها، وقدم صلاح الدين إلى دمشق فأرسل يطلبه فاعتذر خوفاً من شمس الدولة لأنه طلب منه بعلبك فامتنع، فخرج صلاح الدين من دمشق ونزل على بعلبك، وأقام سبعة أشهر يحاصرها فنفد ماعنده، فأرسل إلى السلطان يطلب العوض، فأعطاه بارين وكفر طاب، وخرج شمس الدين بن المقدم إليها، وسلم صلاح الدين بعلبك إلى أخيه شمس الدولة.

وقال ابن كثير: وكان صلاح الدين نازلاً على ظاهر حمص ولم يجيء إلى خدمته ابن المقدم المذكور لأنه بلغه أن أخاه تورانشاه طلب بعلبك منه فأطلقها له، فامتنع ابن المقدم من الخروج إليه لذلك، وجاء السلطان إلى دمشق ثم حضر إلى بعلبك بنفسه فحصره فيها من غير قتال حتى

جاءت الامطار والثلوج والبرد، فعاد إلى دمشق في رجب ووكل بالبلد من يحصره بغير قتال، ثم حصل التعويض، فخرج كما ذكرنا.

ذكر تجهيز صلاح الدين ابن أخيه فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب لغزو الافرنج:

وفي هذه السنة جهز صلاح الدين المذكور بين يديه لقتال الفرنج الذين قد عزموا على قتال المسلمين، وعاثوا في نواحي دمشق وقراها بالفساد، وأمره أن يداريهم حتى يتوسطوا البلاد ولايقاتلهم حتى يقدم عليه، فلما التقوا عاجلوه بالقتال فكسرهم وقتل من ملوكهم صاحب الناصرة وهو الكنفري، وكان من أكابر ملوكهم، وركب صلاح الدين رحمه الله في أثر ابن أخيه، فما وصل الكسوة حتى تلقته الرؤوس على الرماح والغنائم والأسرى.

وفي المرآة: بلغ صلاح الدين أن الكنفري يريد أن يغير على دمشق، فبعث عز الدين فرخشاه ابن أخيه بعساكر دمشق، وقال له يقيم عند مرج عيون، فإن جاءوا فأرسل كتب الطيور إليّ ولاتواقعهم حتى آتيك، فسار ونزل مرج عيون، فلم يشعر الا بطلائع الكنفري قد خالطته، ووقع القتال فلم يقدر فرخشاه على اعلام صلاح الدين فقاتلهم بنفسه، وجرح الكنفري جراحة موثقة فأخذوه وانهزموا، وغنمهم فرخشاه، ومات الكنفري بعد أيام، وجاء صلاح الدين فنزل قصر يعقوب، وبعث السرايا والغارات إلى بلد الافرنج.

ذكر بناء الافرنج قلعة عند بيت الاحزان:

وفي هذه السنة بنت الفرنج لعنهم الله قلعة عند بيت الاحزان للداوية، فجعلوه مرصاداً لحرب المسلمين وقطع طرقاتهم عليهم، ونقضت ملوكهم العهود التي كانت بينهم وبين صلاح الدين، وأغاروا

على نـواحي البلـدان من كـل جـانب ليشغلـوا المسلمين عنهم، وتتفـرق جيـوشهم فـلا تجتمع في بقعـة واحدة، فـرتـب السلطان ابـن أخيه تقـي الدين عمر بثغر حماه، ومعه شمس الـدين ابن المقدم، وسيف الدين علي ابن أحمد المشطـوب، وبثغر حمص ابن عمـه ناصر الـدين محمد بـن أسد الدين شيركوه، وبعـث إلى أخيه سيف الدين أبي بكر وهـو الملك العادل نائب مصر، يأمره أن يرسـل إليه بألف وخمسمائة فارس يستعين بهم على قتال الافرنج، وكتب إلى الافرنج يأمـرهم بتخريب هذا الحصن الذي بنوه للداويـة فامتنعـوا الا ان يبذل لهم مـاغرمـوه عليه، فبـذل لهم ستين ألف دينار، فلـم يقبلوا، فـوصلهم إلى مـائة ألف دينـار، فأبـوا، فقال لـه ابن أخيـه تقـي الـديـن عمر: ابـذل هـذه في أجنـاد المسلمين، وسر إلى هـذا الحصن، ففعل ذلك.

ثم استهلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة:

كان السلطـان صلاح الدين نـازلا بجيشه على تل القاضي ببـانياس، ثم قصده الافرنج بقضهم وقضيضهم، فنهـض إليهم فالتقاهم، فماهو الا ان تواجـه الفريقان حتـى أنزل الله تعالى نصره، فـانهزمت الافرنـج، وقتل منهـم خلق كثير، وأسر منهـم جماعـة من ملـوكهم منهـم مقـدم الداويـة ومقـدم الاسبتاريـة وصاحـب الرملـة، وصاحـب طبرية، وقسطـلان يافـا وآخرون من ملوكهـم، وخلق من شجعانهم وأبطالهم ومن فـرسان القدس جماعة كثيرون، تقريباً من ثلاثمائة أسير من فرسان النصارى.

وفي تـاريـخ بيبرس: وكـان فيمـن أسر بـاديـن بـن بـارزان، وأود بـن القومصيـة، وأخو صاحب جبيـل، فحملوا إلى قلعة دمشق فـاعتقلوا بها، فأما بن بارزان فاستفك نفسـه بجملة عظيمة، وبألف أسير، واستفك ابن القومصية أيضاً، ومات أود في السجن.

وقال العماد الكاتب: لما أسر هؤلاء استعرضهم السلطان في الليل حتى أضاء الفجر، وصلى يومئذ الصبح بوضوء العشاء، وقد كان السلطان ليلتئذ جالساً في نحو العشرين، وهم في هذه العدة، فسلمه الله منهم، ثم أرسلهم إلى دمشق ليعتقلوا بقلعتها، فافتدى ابن بازان صاحب الرملة نفسه بعد سنة بمائة ألف دينار وخمسين ألف دينار صورية واطلاق ألف أسير من بلاده، وكذا افتدى جماعة منهم أنفسهم بأموال جزيلة وتحف جليلة، ومنهم من مات في السجن فانتقل منه إلى سجين.

واتفق أنه في اليوم الذي ظفر فيه السلطان على الفرنج بمرج عيون هذا ظهر الاسطول على بطسة للافرنج في البحر وأخرى معها، فغنموا منها ألف أسير من السبي، وعاد إلى الساحل مؤيدا منصورا، وقد امتدح الشعراء السلطان في هذه الغزوة بمدائح كثيرة، وكتب بذلك إلى بغداد، فدقت البشائر بها فرحاً، وسروراً، وقد كان الملك المظفر تقي الدين عمر غائباً عن هذه الوقعة مشتغلاً بما هو أعجب منها، وذلك أن ملك الروم قليج أرسلان بعث يطلب حصن رعبان، وزعم أن نور الدين محمود اغتصبه منه، وأن ولده قد أغضى له عنه، فلم يجبه إلى ذلك السلطان، فبعث صاحب الروم عشرين ألف مقاتل يحصرونه، فأرسل السلطان تقي الدين عمر في ثمانمائة فارس، منهم سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، فالتقوا بهم فهزموهم باذن الله، فاستقرت يد الملك الناصر صلاح الدين على حصن رعبان، وقد كان قديما مما عوض به ابن المقدم عن بعلبك، وكان تقي الدين عمر يفتخر بهذه الوقعة، ويرى أنه قد هزم عشرين ألفاً، وقيل ثلاثين ألفاً بثمانمائة، وكان السبب في ذلك أنه بيتهم وأغار عليهم وهم غارون، فما لبثوا أمامه بل فروا منهزمين عن آخرهم، فأكثر فيهم القتل واستحوذ على جميع ماتركوه في خيامهم.

ثم ركب صلاح الدين في جحافله إلى الحصن الذي كانت الفرنج قد

بنوه في سنة أربع، وسبعين وخمسمائة وحفروا فيه بئراً وسلموه إلى الداوية، فقصده السلطان فحاصره ونقبه من جميع جهاته، وألقى فيه النيران فجعله دكاً وخربه إلى الأساس، وغنم مافيه من الحواصل، فكان فيه مائة ألف قطعة من السلاح ومن المأكل كل شيء، وأخذ منه سبعمائة أسير، فقتل بعضاً وأرسل إلى دمشق الباقين، ثم عاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً، غير أنه مات من أمرائه عشرة بسبب ماناالهم من الحرّ والوباء في مدة الحصار، وكانت أربعة وعشرين يوماً، وعاد الناس إلى زيارة مشهد يعقوب عليه السلام على العادة القديمة، وكان الحصن المذكور الذي بناه الافرنج قريبا من صفد، وكان عرض سوره عشرة أذرع، وارتفاعه أربعون ذراعاً، وكان بيت الاحزان الذي يزعمون ان يعقوب عليه السلام كان ينفرد فيه ويبكي على يوسف، عليه كنيسة، فجعله السلطان مسجداً، وقد امتدحه الشعراء، فقال بعضهم وهو أحمد بن نقاده الدمشقي:

هلاك الفرنج أتى عاجلا
وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها
لما عمرت بيت أحزانها

ذكر الأمور المزعجة:

منها كان غلاء شديد بسبب قلة المطر وعمّ العراق والشام وديار مصر واستمر إلى سنة خمس وسبعين، فجاء المطر ورخصت الاسعار، ولكن تعقب ذلك وباء شديد وعم البلاد مرض واحد وهو البرسام، فما ارتفع إلا في سنة ست وسبعين، فمات في ذلك الوباء خلق كثير وأمم لايعلم عددهم الا الله عز وجل.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن الفرنج قصدوا مدينة حماة وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعاً في النهب والغارة، فشنوا الغارة ونهبوا وأحرقوا وأسروا وقتلوا، فلما سمع العسكر المقيمون بحماة ساروا إليهم متوكلين على الله لأنهم كانوا عدة قليلة، وصدقوا القتال فنصرهم الله، وانهزمت الافرنج وكثر القتل والاسر واستردوا منهم ماغنموا، ووصل صلاح الدين إلى حماه، فأمر باحضار الاسارى وقتلهم، فأحضروا وقتلوا.

ومنها أن السلطان ختن ولده الملك العزيز عثمان فاتخذ له يوسف بن الحسين، ويعرف بابن المجاور معلماً، وتسلم فرخشاه بعلبك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والسبعين بعد الخمسمائة:

ذكر ماجريات صلاح الدين رحمه الله:

منها أنه سار بعساكره إلى أن وصل إلى رعبان منجداً لنور الدين محمد ابن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا على قليج أرسلان بن مسعود ملك الروم، وسبب ذلك أن نور الدين بن محمد بن قرا أرسلان تزوج بابنة قليج أرسلان، ثم أحب مغنية وتركها نسياً منسياً، فشكت حالها إلى أبيها، فعزم على قصد بلاده، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يستنجده ويسأله كف يد قليج أرسلان عنه، فأرسل صلاح الدين إلى قليج أرسلان في ذلك، فأعاد الجواب: إنني كنت عند تزويجه ابنتي دفعت إليه عدة حصون، ولابد من اعادتها إليّ، وكان صلاح الدين قد هادن الفرنج فسار في عساكره نحو بلاد قليج أرسلان وهي: ملطية، وسيواس، وقونية، ومابينها، فلماسمع قليج أرسلان بقربه منه أرسل إليه بعض أمرائه، وذكر له بعض الحديث الذي جرى منه، فقال صلاح

الدين للرسول: قل لصاحبك لئن لم ترجع عن بلاده لاسيرن إلى ملطية ، ولاأنزل عن فرسي الا في الباب، وكان الرسول قد عاين جيشاً عظيما، وكان عاقلاً أريباً، فقال لصلاح الدين: أريد أقول للسلطان كلاماً لم يرسلني به استاذي؟ فقال له: تعطيني الأمان؟ فقال: قل وأنت آمن، فقال: يامولانا أما هو قبيح بمثلك وأنت أعظم السلاطين قدراً وأكبرهم شأنا ان يسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصالح المملكة، وأعرضت عن كل مافيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة، وخسرت أنت وعسكرك الأموال العظيمة لأجل قحبة مغنية، مايكون عذرك عند الله تعالى، ثم عند الخليفة وملوك الاسلام، وكافة العالم، وهب أن أحداً مايواجهك بهذا، أما يعلمون ان الامر كذا، ثم احسب أن قليج أرسلان مات وهذه ابنته قد ارسلتني إليك تستجير بك وتسألك أن تنصفها من زوجها، فإن فعلت فهو الظن، وإن لم يكن أفيحسن بك أن تردها، فقال صلاح الدين: الحق ببلدك وإن الامر لكما تقول، ولكن هذا الرجل دخل علي واستجار بي، ويقبح بي تركه، ولكن اجتمع به وأصلح الحال بينكم على ماتحبون وأعينكم عليه، ووعد من نفسه بكل جميل، واجتمع الرسول بنور الدين بن قرا أرسلان، وترددا القول بينهم فاستقر له أن يخرج المغنية بعد سنة، وإن لم يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته ويكون هو وقليج أرسلان عليه، ولما تقرر الحال على ذلك قصد صلاح الدين بلاد ابن لاون، وذلك أنه كان قد استمال قوماً من التركمان وبذل لهم الامان وأمرهم أن يرعوا مواشيهم في بلاده، وهي بلاد حصينة منيعة كثيرة الوعر، ثم غدر بهم، وسبى حريمهم وأخذ أموالهم، وأسر رجالهم وقتل منهم جماعة، فنزل صلاح الدين على النهر الأسود، وبث الغارات على بلاده، فخاف ابن لاون على حصن له على رأس جبل أن يؤخذ، فخربه وأحرقه، وهو يسمى حصن المناقير، وسمع صلاح الدين بذلك فأسرع السير فأدركه قبل أن ينقل مافيه من ذخائر وأقوات فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه، فأطلق ابن

لاون من عنده من أسرى التركمان، وأعاد السبي والأموال، وعاد صلاح الدين، وتوجه إلى مصر ومعه الملك الظاهر غازي، والملك العزيز ولداه واستخلف على الشام ودمشق عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه ابن أخيه.

ومنها أنه في رجب قدمت رسل الخليفة الناصر لدين الله ومعهم خلع وهدايا إلى الملك الناصر صلاح الدين فلبس السلطان خلع الخليفة بدمشق، وزينت له البلاد، وكان يوماً مشهوداً.

وفي المرآة: وفيها وصل شيخ الشيوخ وصحبته رسول الخليفة إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومعهما خلع وهدايا، فلبس السلطان الخلع بدمشق وزينت له المدينة، وكان يوما مشهوداً.

ومنها أن السلطان سار من الشام إلى الديار المصرية لينظر في أحوالها وأمورها ويصوم بها رمضان، ومن عزمه أن يحج عامه ذلك إلى بيت الله الحرام، واستناب على الشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه ابن أيوب، وكتب القاضي الفاضل عن الملك العادل أبي بكر نائب مصر إلى أهل اليمن ومكه يعلمهم بعزم السلطان على الحج في هذا العام إلى المسجد الحرام ليتأهبوا للملك ويهتموا به، واستصحب السلطان معه صدر الدين أبا القاسم عبد الرحيم بن شيخ الشيوخ ببغداد، الذي قدم في الرسالة من جهة الخليفة ليكون في خدمته الى الديار المصرية، وفي صحبته الى الحجاز الشريف، فدخل السلطان مصر وتلقاه الجيش، وكان يوما مشهوداً، وأما صدر الدين فانه لم يقم بها الا قليلا حتى توجه الى الحجاز الشريف في البحر، فأدرك الصيام بالمسجد الحرام.

وفي المرآة: وإنما ركب شيخ الشيوخ البحر من مصر ومضى الى مكة لنذر كان عليه، وأقام إلى أيام الموسم وحج وعاد الى بغداد.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر، صاحب الموصل، تقلد المملكة بعد وفاة أبيه مودود، وهو والد سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر، وأقام في الملك عشر سنين وشهوراً، وأصابه مرض مزمن، وتوفي يوم الاحد ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة، وتولى بعده أخوه عز الدين مسعود.

وقال ابن كثير: وكان سيف الدين غازي شاباً حسنا مليح الشكل، تام القامة مدور اللحية، مكث في الملك عشر سنين ومات عن ثلاثين سنة وكان عفيفا في نفسه مهيباً وقورا لايلتفت إذا ركب ولا إذا جلس، غيورا لايدع احدا من الخدم يدخل على النساء، وكان لايقدم على سفك الدماء، وينسب الى شيء من البخل.

فأجلس مكانه في المملكة أخوه عز الدين مسعود، وجعل مجاهد الدين قيماز نائبه ومدبر مملكته، وجاءت رسل الخليفة يلتمسون من صلاح أن يبقي سروج والرها والرقة وحران والخابور ونصيبين بيده كما كانت في يد أخيه، فامتنع السلطان من ذلك، وقال: هذه البلاد هي حفظ ثغور الاسلام، وإنما كنت تركتها في يده ليساعدنا على غزو الافرنج، فلم يكن يفعل ذلك، وكتب إلى الخليفة يعرفه بذلك.

وفي تاريخ بيبرس: وكان مرض غازي السل، وأراد أن يعهد بالملك إلى ابنه الأكبر معز الدين سنجر شاه، وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة، فخاف من صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولم يجبه أخوه مسعود إلى ذلك، فأشار عليه أكابر دولته بأن يجعل الملك في أخيه عز الدين مسعود، وأن يجعل لولديه بعض البلاد، وأن يكون مرجعهما إلى عز الدين عمهما، والمتولي لأمرهما مجاهد الدين قيماز، ففعل ذلك، وأعطى جزيرة

ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه، وقلعة الحميدية لولده الصغير ناصر الدين، وكان مجاهد الدين قيماز الحاكم في الجميع.

وقال ابن الأثير: كان قد علق به سل، وطالت علته وأجدبت البلاد قبل موته، وخرج الناس يستسقون، وخرج سيف الدين معهم فاستغاث إليه الناس، وقالوا: كيف يستجاب لنا والخمور والخواطي والمظالم بيننا، فقال: قد أبطلتها، ورجعوا الى البلد وفيهم رجل صالح يقال له أبو الفرج الدقاق، فأهرق الخمور لاغير، ونهب العوام دكاكين الخمارين، فاستدعى الدقاق إلى القلعة وقال له: أنت جرأت العوام على السلطان وضرب على رأسه، فانكشف رأسه وأطلق بعد قليل: ونزل مكشوف الرأس، فقيل له غط رأسك، فقال: والله لاغطيته حتى ينتقم لي ممن ظلمني، فمات الدزدار والذي ضربه بعد قليل، ومرض سيف الدين وتوفي.

ذكر حكايته مع الشيخ أبي أحمد الحداد الزاهد:

كان أبو أحمد قد انقطع في قرية من بلد الموصل يقال لها الفضلية ومنها أصله، وهي على فراسخ من الموصل، قال السبط: حدثني أبو بكر القديمي واسماعيل الشعار، وكانا قد صحبا الشيخ أبا أحمد، قالا: كان سيف الدين يزور الشيخ أبا أحمد، فقال له يوما: ياسيف الدين أي فائدة في زيارتك وأنت تشرب الخمر وتبيح المحرمات، وتمكس المسلمين، فإن كنت تدع هذا وإلا فلا تجيء إلى عندي، فقال: ياسيدي انا تائب إلى الله من جميع ماقلت وترك الجميع وعاد إلى ماكان عليه.

وكان للشيخ طاقة على باب الزاوية ينظر من يجيىء من دمشق، قال: فبينما نحن عنده يوما إذا بسيف الدين قد أقبل وصعد على الدرج، فقال: يا أبا بكر أغلق الباب في وجهه وقل له: عندي شغل وادفعه إلى أسفل الدرج، قال أبو بكر القديمي: فخرجت فاستحييت منه، فقال

لي سيف الدين: ياشيخ افعل بي ما أمرك الشيخ، وأدار ظهره اليّ، فدفعت في ظهره حتى أنزلته إلى أسفل الدرج فقعد يبكي وصاح الجند بأسرهم، فأشار إليهم أن اسكتوا، ثم قال لي: ياشيخ اصعد الى الشيخ وقل له: فما لي توبة؟ قال: فصعدت إليه وأخبرته، فقال: قل له يجوز قد أذنت له، قال: فخرجت وقلت له: بسم الله، فدخل على الشيخ فبكى وقبل يده وتاب إلى الله تعالى، وعاد إلى الموصل، وأقام مدة يسيرة ومات يوم الاحد ثالث صفر، ولم يبلغ ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً.

وأراد أن يعهد إلى ابنه سنجرشاه فامتنع أخوه عز الدين مسعود من ذلك، وقال له مجاهد الدين قيماز وأكابر الأمراء: قد علمت استيلاء صلاح الدين على البلاد وقربه منا، وسنجرشاه صبي لارأي له، وأخوك عز الدين كبير السن صاحب رأي وشجاعة فاعهد إليه واجعله وصياً على أولادك ففعل، وكانت الرعية قد خافت من عز الدين مسعود لاقدامه على سفك الدماء وحدته، فلما ولي تغيرت اخلاقه، فصار رفيقاً بالرعية قريباً منهم محسناً إليهم، ولما مات سيف الدين كان صلاح الدين في حدود الروم فأرسل إليه مجاهد الدين قيماز الفقيه أبا شجاع بن الدهان البغدادي، فطلب منه أن يكون مع عز الدين كما كان مع أخيه سيف الدين ويبقي عليه الجزيرة ومابيده من حران والرها والرقة وخابور ونصيبين وقاطع الفرات، فقال صلاح الدين: أما ماخلف له من بلاد الموصل فهو باق على حاله، وأما ماذكره من بلاد الجزيرة فإنما كانت بيده بشفاعة الخليفة على شرط أن يقوي ثغور المسلمين بالمال والعساكر، أما الآن فالخليفة قد فوض أمرها إليّ، لا أفعل الا ماأراه من المصلحة.

الملك المعظم تورانشاه:

مات في هذه السنة.

قال ابن كثير: السلطان الأكبر، الملك المعظم شمس الدين تو رانشاه ابن أيوب، الذي افتتح بلاد اليمن عن أمر أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فمكث فيها حيناً، واقتنى منها أموالاً جزيلة ثم استناب فيها، وأقبل نحو أخيه إلى الشام شوقاً إليه، وكان قدومه إليه في سنة احدى وسبعين وخمسمائة كما ذكرنا، فشهد معه مواقف مشهودة وغزوات محمودة، واستنابه على دمشق مدة، ثم سار إلى مصر فاستنابه على اسكندرية، فلم توافقه وكان يعتريه القولنج فمات بها في هذه السنة فدفن فيها، ثم نقلته أخته ست الشام بنت أيوب فدفنته بتربتها التي بالشامية البرانية بدمشق، فقبره القبلي، والوسطاني قبر زوجها ابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، والمؤخر قبرها رحمها الله، والتربة الحسامية منسوبة إلى ولدها حسام الدين عمر بن لاجين وهي إلى جانب المدرسة من غربيها.

وقد كان الملك تورانشاه كريما جواداً ممدحاً شجاعاً باسلا عظيم الهيبة كبير النفس، واسع الصدر، وقال فيه ابن سعدان الحلبي:

هو الملك إن تسمع بكسرى وقيصر
فإنهما في الجود والبأس عبداه
وما حاتم ممن يقاس بمثله
فخذ ما رأيناه ودع ما رويناه
ولذ بذراه مستجيراً فإنه
يجيرك من جور الزمان وعدواه

ولا تحمل للسحائب منة
إذا هطلت جود سحائب جدواه
ويرسل كفيه بما اشتق منهما
فلليمن يمناه ولليسر يسراه

ولما بلغ خبر موته إلى أخيه السلطان صلاح الدين وهو مخيم بظاهر حمص، حزن حزناً شديداً عليه وجعل ينشد باب المراثي من الحماسة، وكانت محفوظته.

وقال ابن خلكان: وكانت وفاة تورانشاه يوم الخميس مستهل صفر، ويقال خامس صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة، وتورانشاه بضم التاء المثناة من فوق، وسكون الواو، وبعدها راء مهملة ثم بعد الألف نون ساكنة وبعدها شين معجمة وألف ساكنة وهاء، ومعناه ملك الشرق، وشاه لفظ أعجمي ومعناه الملك، وتوران اسم بلاد الترك، والعجم يسمون الترك تركمان، ثم حرفوه فقالوا: توران، وقد علم أن المضاف إليه يقدم على المضاف في لغتهم، فافهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، وأصحاب البلاد على حالهم، غير أن الملك الصالح بن نور الدين محمود مات في هذه السنة.

ذكر وفاة الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في ترجمته.

هو السلطان الملك الصالح اسماعيل بن السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي صاحب حلب وماوالاها، وكان أبوه نور الدين رحمه الله قد عهد بالملك له، وعمره يوم مات أبوه إحدى عشرة سنة، وكان مولده في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وخرج السلطان صلاح الدين من مصر وملك دمشق وغيرها من بلاد الشام ولم يبق عليه سوى مدينة حلب.

الثاني: في سيرته.

قال ابن خلكان: كان محسناً محمود السيرة.

وقال النويري: وكان من أعف الملوك، ومن يشابه أباه فما ظلم، وصف له الاطباء في مرضه شرب الخمر، فاستفتى بعض الفقهاء في شربها تداويا فأفتاه بذلك، فقال له: أيزيد شربها في أجلي، أو ينقص منه شيئاً؟ قال: لا، قال: فوالله لاأشربها وألقى الله وقد شربت ماحرمه علي.

وفي تاريخ بيبرس: أفتاه بذلك فقيه من مدرسي الحنفية، فقال: أرأيت إن قدر الله قرب الاجل، أيؤخره شرب الخمر، فقال الفقيه: لا، فقال له ماذكرنا.

وذكر ابن الأثير أنه لما اشتد به المرض وضعف، وصف له الاطباء قليل خمر، فقال: لاأفعل حتى أسأل الشافعية فأفتوه بالجواز، وسأل العلاء الكاساني فأفتاه أيضاً، فلم يفعل.

وقال السبط: أخطأ الكاساني فإن الخمر لايباح عند أبي حنيفة رضي الله عنه وجميع أصحابنا للتداوي، وكذا عند مالك وأحمد، وعند الشافعي يجوز للضرورة، وعندنا إن الله لم يجعل شفاء الامة فيما حرم عليها.

وفي تاريخ المؤيد: وكان عفيف اليد والفرج واللسان ملازماً لامور الدين، لايعرف له شيء مما يتعاطاه الشباب.

الثالث: في وفاته.

وقال ابن خلكان: وتوفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وذكروا أنه لم يبلغ عشرين سنة ودفن في المقام الذي بالقلعة، ثم نقل إلى رباطه المعروف به تحت القلعة، وهو مشهور هناك.

وفي المرآة: وكان مرضه القولنج بدأ به في تاسع رجب

وقال المؤيد في تاريخه: في رجب توفي الملك الصالح وعمره تسع عشرة سنة، ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الاطباء الخمر، فمات ولم يستعمله.

وفي تاريخ ابن كثير: وكانت وفاته بقلعة حلب ودفن بها، وكان سبب وفاته فيما قيل أن الأمير علم الدين سليمان بن جندر سقاه سماً في عنقود عنب في الصيد، وقيل بل سقاه ياقوت الأسدي في شراب، وقيل في خشكنانكة، فاعتراه قولنج، فمازال كذلك حتى مات وهو شاب حسن الصورةبهي المنظر، ولم يبلغ عشرين سنة، ولما يئس من نفسه استدعى الامراء فحلفهم لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، لقوة سلطانه وتمكنه ليمنعها من صلاح الدين، وخشي أن يبايع لابن عمه الآخر عماد الدين زنكي صاحب سنجار، وهو زوج أخته وتربية والده فلايمكنه حفظها من صلاح الدين، فلما مات استدعى الحلبيون عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود صاحب الموصل، فجاء إليهم، فدخل حلب في أبهة عظيمة وكان يوماً مشهوداً، وذلك في العشرين من شعبان من هذه السنة، فتسلم خزائنها وحواصلها ومافيها من السلاح،

وكان تقي الدين عمر بمدينة منبج فهرب إلى حماة فوجد أهلها قد نادوا بشعار عز الدين صاحب الموصل، وأطمع الحلبيون عز الدين مسعود في أخذ دمشق لغيبة صلاح الدين بالديار المصرية، وأعلموه بمحبة أهل الشام لهذا البيت الأتابكي، وقال: بيننا وبينه أيمان وعهود، وأنا لاأغدر به، فأقام بحلب شهوراً، وتزوج بأم الملك الصالح في شوال ثم سار إلى الرقة فنزلها وجاءته رسل أخيه عماد الدين يطلب منه أن يقايضه من حلب إلى سنجار، وألح في ذلك، وتمنع أخوه ثم رضي على كره منه، فسلم إليه حلب، وسلمه عماد الدين سنجار والخابور والرقة وسروج وغير ذلك من البلاد، وعاد عز الدين مسعود إلى حلب، ولما سمع السلطان صلاح الدين بهذه الامور ركب من الديار المصرية في عساكره، فسار حتى الفرات.

وفي تاريخ بيبرس: تسلم عماد الدين صاحب سنجار حلب عوضاً عن سنجار، وذلك أنه لما رحل عز الدين إلى الرقة جاءته رسل أخيه، عماد الدين يطلب أن تسلم إليه حلب ويأخذ عوضاً عنها سنجار فلم يجبه إلى ذلك فقال: إن لم تسلموا إليّ حلب، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين، فأشار الامراء على عز الدين بتسليم حلب إليه، فاستقر الأمر على تسليمها إلى عماد الدين، وأخذ سنجار عوضا عنها، وبلغ ذلك صلاح الدين فخاف على دمشق، وبرز من مصر وسار إلى الشام في محرم السنة الآتية على مانذكره إنشاء الله تعالى.

ذكر بقية ماجريات صلاح الدين:

منها: أنه لما استهلت هذه السنة كان صلاح الدين مقيماً بالقاهرة مواظباً على سماع الاحاديث، جاء كتاب من نائبه بالشام عز الدين فرخشاه يهنيه بما منّ الله تعالى به على الناس من كثرة ولادة النساء من التوائم جبراً لما كان أصابهم في العام الماضي من الوباء والفناء، وبأن

الشام مخصب بإذن الله جبراً من الله تعالى لما كان أصابهم في العام الماضي من الجدب والغلاء.

ومنها: أنه في شوال منها توجه صلاح الدين إلى الاسكندرية، وخيم بظاهرها عند عمود السواري، فشاهد ماأمر به من تحصين سورها وعمارة أبراجها وقصورها، وسمع موطأ الامام مالك رحمه الله على الشيخ أبي طاهر بن عوف عن الطرطوشي، وسمع ذلك معه العماد الكاتب، وأرسل القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين رسالة يهنيه بهذا السماع.

ومنها أنه ولد لصلاح الدين ولدان وهما الملك المعظم تورانشاه، والملك المحسن أحمد، وكان بين ميلادهما سبعة أيام، ، فزينت البلاد، واستمر الفرح والسرور.

وفي تاريخ الدولتين: الملك المحسن أبو العباس أحمد ظهير الدين، ولد بمصر في ربيع الأول من هذه السنة، وهو لأم الاشرف، والملك المعظم أبو منصور تورانشاه فخر الدين ولد بمصر في ربيع الأول من هذه السنة، ومات سنة ثمان وخمسين وستمائة، وهي السنة التي أخرب العدو من التتار مدينة حلب وغيرها.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن الأفرنج غدرت ونقضت عهودها، وقطعت السبل على المسلمين براً وبحراً، سراً وجهراً، فأمكن الله من بطسه عظيمة لهم فيها نحو ألفين وخمسمائة نفس من رجالهم المعدودين، منهم من ألقاهم الموج إلى ثغر دمياط، قبل خروج السلطان صلاح الدين من مصر، فأحيط بها فغرق بعضهم، وحصل في الاسر ألف وسبعمائة منهم.

ومنها أن فرخشاه ابن أخي السلطان صلاح الدين ونائبه بدمشق،

سار إلى أعمال الكرك ونهبها لما بلغه أن الفرنج تطرقوا لان يسيروا إلى مكة وإلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فجمع العساكر الدمشقية، وسار إلى بلدهم ونهبه وخربه، وعاد إلى بلاد الاسلام، وأقام بها ليمنع البرنس من التعرض إلى المسلمين، وأما الذين سيرهم الفرنج إلى الحجاز، فأهلك الله تعالى جميع من سيروا، وقتلوا وأسروا.

ومنها أنه استوت عدة جيش صلاح الدين على ثمانية آلاف وستمائة وأربعين طواشية وقراغلامية.

ومنها أن صاحب ماردين حصر قلعة البيرة وكانت لشهاب الدين الارتقي، وهو ابن عم قطب الدين ايلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين، وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنكي، فمات شهاب الدين الارتقي، وملك القلعة بعده ولده، وصار في طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل، فلما كان في هذه السنة أرسل صاحب ماردين إلى عز الدين مسعود يستأذنه في حصر البيرة، وأخذها فأذن له فسار فنزل شميشاط وكانت له، وأرسل عسكره إليها فحصرها، فسير صاحبها إلى صلاح الدين يطلب منه أن ينجده، فسير رسولا فشفع فيه فرحل صاحب ماردين عن البيرة.

ومنها أن المسلمين فتحوا الشقيف من الفرنج، وذلك أن الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر إلى الشام جمعوا له وحشدوا الفارس والراجل، واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم يظفرون منه بفرصة، فخلت بلادهم من ناحية الشام، فسمع فرخشاه الخبر فجمع عساكر الشام، ثم قصد بلاد الفرنج وأغار عليها، ونهب دبورية ومايجاورها من القرى، وأسر الرجال، وسبى النساء وغنم الأموال، وفتح منهم الشقيف وأرسل إلى صلاح الدين بالبشارة.

ومنها أن البرنس صاحب الكرك لعنه الله عزم على قصد تيماء من أرض الحجاز ليتوصل منها إلى المدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فجهزت له سرية من دمشق تكون حاجزة بين وبين أرض الحجاز، فصده ذلك عن قصده لعنه الله.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والسبعين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، وأصحاب البلاد على حالهم، والسلطان صلاح الدين خرج من مصر إلى الشام في خامس المحرم من هذه السنة، وكان ذلك آخر عهده بمصر لم يعد إليها بعد ذلك.

وفي تاريخ المؤيد: وفي خامس المحرم سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى الشام، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة، وخرجت أعيان الناس لوداعه، أخذ كل منهم يقول شيئا في الوداع وفراقه وفي الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه، وتنكد المجلس على الحاضرين، فلم يعد صلاح الدين إلى مصر مع طول المدة، وسار السلطان وأغار في طريقه على بلاد الفرنج، وغنم ووصل إلى دمشق في حادي عشر صفر من هذه السنة.

وفي المرآة: وفي خامس المحرم من هذه السنة خرج صلاح الدين من مصر، ونزل البركة قاصداً إلى الشام، وخرج أرباب الدولة لوداعه، وأنشد

الشعراء أبياتاً في الوداع، فسمع قائلاً يقول في ظاهر الخيم: تمتع... إلى آخره، وطلب القائل فلم يوجد، فوجم السلطان، ونظر الحاضرون فكان كما قال، اشتغل السلطان بالشرق والافرنج، ولم يعد بعدها إلى مصر، وسار السلطان على أيلة والحسا ووادي موسى، وكان فرخشاه بدمشق، فبلغه أن الفرنج قد اجتمعوا عند الكرك لقصد السلطان، فخرج من دمشق فنزل طبرية وعكا ودبورية، فقصدوه فالتقاهم وكسرهم وقتل منهم ألوفا وأسر وساق عشرين ألفاً من الانعام وغيرها، وفتح حصناً مشرفاً على السواد على شقيف يقال له حصن جلدك، وقتل من فيه وأسكنه المسلمين وجعلهم طلائع وساق إلى بصرى فالتقى السلطان عندها فسربه، ودخلا دمشق في صفر.

وفي تاريخ ابن كثير: أغار صلاح الدين في طريقه على أطراف بلاد الفرنج بأرض الكرك، وجعل أخاه تاج الدين بوري بن أيوب على الميمنة يسير ناحية عنه ليتمكنوا من بلاد العدو، فالتقوا على الازرق بعد سبعة أيام، ووصل السلطان الى دمشق في حادي عشر صفر منها، وقيل في سابع عشر.

ذكر ماجريات صلاح الدين من الغزوات وغيرها بعد دخوله دمشق:

منها أنه خرج من دمشق في العشر الأول من ربيع الأول، ونزل قرب طبرية، وشن الاغارة على بلاد الافرنج مثل بيسان وجينين والغور، فغنم منها، وقتل جماعة.

وقال ابن كثير: واقتتل مع الفرنج تحت حصن كوكب، فقتل خلق من الفريقين، ولكن كانت الدائرة للمسلمين، ثم رجع مؤيدا منصوراً إلى دمشق، ثم سار إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها، ثم عاد إلى دمشق.

وفي تاريخ بيبرس: وفيها سار صلاح الدين من دمشق إلى بيروت فحاصرها ونهب ماوجد، وأمر اسطول مصر أن ينزلوا عليها ويحاصروها، فكان وصوله لها قبل وصولهم، وكان عازما على حصارها الى ان يفتحها، وأتاه الخبر بأن بطسة عظيمة ألقاها البحر إلى دمياط خرج من فيها من الفرنج للحج الى بيت المقدس، فأسروا من بها، فكان عدة الاسرى ألفاً وستمائة وستة وسبعون أسيراً فضربت بذلك البشائر.

ومنها أنه سار إلى البلاد الحلبية والجزرية لأخذها، وذلك أن المواصلة والحلبية قد كاتبوا الفرنج حتى يغزو على أطراف البلاد ليشغلوا السلطان صلاح الدين بنفسه عنهم، فكان سيره على بلاد البقاع ثم إلى حماه، ثم إلى حلب فحاصرها ثلاثاً، ورأى أن العدول إلى غيرها أولى به، فسار حتى قطع الفرات من البيرة، وصار معه مظفر الدين كوكبري صاحب حران، وكاتب ملوك تلك الاطراف، واستمالهم، فأجابه نور الدين محمد ابن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، وصار معه ونازل السلطان مدينة الرها وحاصرها وملكها وسلمها الى مظفر الدين كوك بوري، ثم سار الى الرقة وأخذها من قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، فسار هو إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل، ثم صار صلاح الدين إلى خابور، وملكها وملك ايضاً قرقيسيا وماكسين وعربان، واستولى على الخابور جميعها، ثم سار إلى نصيبين وحاصرها وملك المدينة، ثم ملك القلعة واقطعها أميراً كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين، ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل وقد استعد صاحبها مسعود ومجاهد الدين قيماز للحصار، فأقام عليها منجنيقا وأقاموا عليه من داخل المدينة مجانيق، وضايق الموصل، فلما رأى طول الحصار رحل عنها الى سنجار وحاصرها وملكها واستناب بها سعد الدين بن معين الدين، وكان من أكبر الامراء، ثم سار صلاح الدين إلى حران وعزل عن نصيبين في طريقه أبا الهيجاء السمين، ثم عاد إلى حلب، وقد استحوذ على بلاد الجزيرة، وخضعت له

الملوك هناك، ولما وصل الى حلب تسلمها من صاحبها عماد الدين زنكي، وقد كان قايض أخاه عز الدين مسعود بها إلى سنجار، كما ذكرنا في العام الماضي، فاستوسقت الممالك شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، وتمكن حينئذ من قتال أعدائه من الفرنج لعنهم الله، وتملكه حلب وغيرها إنما كان في السنة الآتية على مانذكره إن شاء الله تعالى.

وفي تاريخ بيبرس: عبر صلاح الدين الفرات وملك الديار الجزرية، وسبب ذلك أن مظفر الدين كوكبري ابن زين الدين علي بن بكتكين مقطع حران أرسل الى صلاح الدين يعلمه أنه معه وأنه محب لدولته، ووعده النصر، وأنه إذا عبر الفرات يعينه ويعرفه أخذ البلاد، فرحل عن بيروت، ورسل مظفر الدين متواترة إليه تحثه على القدوم، فجد السير يظهر أنه يريد حصر حلب، ولما قارب الفرات سار إليه مظفر الدين واجتمع به فقصد البيرة، وكان صاحبها مع صلاح الدين وفي طاعته، فعبر هووأصحابه من الجسر الذي عند البيرة، وكان عز الدين مسعود ومجاهد الدين قايماز لما بلغهما وصول صلاح الدين إلى الشام قد جمعا العسكر وسارا إلى نصيبين ليكونا على أهبة لئلا يتعرض صلاح الدين إلى حلب، ثم تقدما إلى دارا، فنزلا عندها، فجاءهما أمر لم يكن في الحساب، فلما بلغهما عبوره الفرات عادا إلى الموصل، وأرسلا إلى الرها عسكراً يحميها ويمنعها، فلما سمع صلاح الدين ذلك قوي طمعه في البلاد وكاتب الملوك أصحاب الاطراف ووعدهم، وبذل لهم البذول على نصرته، فأجابه نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا لقاعدة كانت بينهما لما كان عنده بالشام، فقصد آمد وحصرها وقاتلها أشد القتال، وكان بها مقطعها الامير فخر الدين الزعفراني، فطلب الامان وسلم البلد، وصار في خدمة صلاح الدين، ولما ملك المدينة زحف إلى القلعة فسلمها إليه الدزدار الذي بها على مال أخذه، ولما ملكها صلاح الدين سلمها إلى مظفر الدين كوكبوري مع حران، ثم سار إلى الرقة وبها

مقطعها قطب الدين ينال المنبجي، فسار عنها إلى عز الدين مسعود وملكها صلاح الدين، وسار إلى الخابور وقرقيسياء وماكسين وعربان، فملك جميع ذلك، فلما استولى على الخابور جميعه سار إلى نصيبين فملك المدينة لوقتها، وحصر القلعة أياماً فملكها وأقام بها ليصلح شأنها، ثم أقطعها أبا الهيجاء السمين، وسار عنها.

ومنها أنه لما ملك نصيبين جمع أمرائه وأرباب المشورة فاستشارهم بأي البلاد يبدأ، بالموصل أو بسنجار، أو بجزيرة ابن عمر، فاختلفت آراؤهم فقال له مظفر الدين: لاينبغي أن نبدأ بغير الموصل، فإنها في أيدينا لامانع لها، وإن عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيماز متى سمعا بمسيرنا إليها تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية، ووافقه ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكان قد بذل لصلاح الدين مالا كثيراً ليقطعه الموصل: إذا ملكها، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، فأشار بهذا الرأي لما في نفسه.

وصار صلاح الدين إلى الموصل، وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين نائبه قد جمعا عسكراً كثيراً من فارس وراجل وأظهرا من آلات الحصار ماحارت له الابصار، وبذلا الاموال الكثيرة وشحنا مابقي بأيديهم من البلاد كالجزيرة وسنجار، وغيرها بالرجل والسلاح والاموال، ولما قارب صلاح الدين الموصل ترك عسكره وانفرد هو ومظفر الدين وناصر الدين ابن عمه ومعهم نفر من أعيان دولته، وقربوا من البلد، فرأى ماهاله من عظم البلد، ورأى السور قد ملىء من الرجال، وليس فيه شرافة إلا وعليها مقاتل، سوى من عليه من عامة البلد، فعلم أنه لايقدر عليه، وأنه متى نازله وعاد عنه انكسر ناموسه، ثم رجع الى معسكره وصبح البلد فنازله وضايقه، ونزل محاذي باب كندة، وأنزل صاحب الحصن بباب الجسر، وأنزل أخاه تاج الملوك عند الباب العمادي، وأنشب القتال فلم يظفر، وأقام أياماً، ولم ينل منها شيئاً،

وترددت الرسل إلى عز الدين مسعود ومجاهد الدين في الصلح، فطلب عز الدين اعادة البلاد التي أخذت منهم، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط تسليم حلب إليه، فامتنع عز الدين ومجاهد الدين، ولم ينتظم صلح ولاتم أمر، فلما رأى صلاح الدين أنه لاينال من الموصل غرضا، وان من بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصده من عساكره وأصحابه، سار عن الموصل إليها، وسنذكر ماجرى بعد ذلك في السنة الآتية ان شاء الله تعالى.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن البرنس صاحب الكرك عليه اللعنة عمل مراكب في بحر القلزم ليقطعوا الطريق على التجار والحجاج، وذلك لما عجز عن ايصال الاذى للمسلمين في البر، فوصلت أذيتهم الى عيذاب، وخاف أهل المدينة النبوية من شرهم فأمر العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين نائب مصر الأمير حسام الدين لؤلؤ صاحب الاسطول أن يعمل مراكب في بحر القلزم لمحاربة البرنس، ففعل ذلك، فظفر بهم في كل موطن، وقتلوا منهم وحرقوا وغرقوا وسبوا وقهروا وأسروا في مواطن كثيرة ومواقف هائلة، وأمن البر والبحر بأذن الله، وأرسل صلاح الدين الى أخيه العادل أبي بكر يشكر من مساعيه، وأرسل الى ديوان الخليفة بما أنعم الله به عليهم من الفتوحات براً وبحراً.

وفي المرآة: في هذه السنة كانت وقعة الحاجب لؤلؤ مع الفرنج، خرج ابرنس صاحب الكرك إلى أيلة فأقام بها ومعه الاخشاب على الجمال والصناع، فعمل المراكب، وكان قصده مكة والمدينة والغارات في البحر، فلما تم عملها ركب فيها، ووصل الى عيذاب في بحر القلزم، فأخذ مراكب التجار ونهب وقتل وأسر، وسار يريد جده، وبلغ الخبر إلى سيف الدين العادل أخي السلطان، فأمر حسام الدين الحاجب لؤلؤ، فركب في

بحر القلزم، وسار خلفهم، وساعده الريح فأدركهم وقد أشرفوا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، وهرب بعضهم في البر، وأسر الباقين فأخذ مائة وسبعين أسيراً، وخلص أموال التجار، وردها عليهم، واستولى على مراكبهم، وعاد الى القاهرة، وكتبوا الى صلاح الدين بذلك، فقال بضرب رقاب الاسرى بعضهم بالقاهرة، وبعضهم بمكة، وبعضهم بالمدينة، ففعلوا وكتبوا بذلك إلى الخليفة.

وفي تاريخ المؤيد: وكان حسام الدين لؤلؤ مظفراً فيه، شجاعاً فسار في طلبهم مجداً وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم، ثم سار في طلب الفرقة الثانية، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة وسار يقفو أثرهم، فبلغ رابغ، فأدركهم بساحل الحوراء وتقاتلوا أشد القتال، فظفر الله بهم، وقتل لؤلؤ أكثرهم، وأخذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم الى منى لينحروا بها، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم.

ومنها أن عز الدين صاحب الموصل اجتمع هووشاه أرمن صاحب خلاط على قتال صلاح الدين، وسبب ذلك أن رسل عز الدين ترددت إلى شاه أرمن يستنجده ويستنصره على صلاح الدين، فأرسل شاه أرمن إلى صلاح الدين عدة رسل في الشفاعة بالكف عن الموصل، ومايتعلق بعز الدين، فلم يجبه إلى ذلك وغالطه، فأرسل إليه أخيراً مملوكاً له يقال له سيف الدين بكتمر الذي ملك خلاط بعده، فأتاه وهو يحاصر سنجار يطلب إليه أن يتركها ويرحل عنها، وقال له: إن رحل عنها وإلا فتهدده بقصده ومحاربته فأبلغه بكتمر الشفاعة، فسوفه في الاجابة رجاء أن يفتحها، فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة بالتهديد وفارقه غضبان، ولم يقبل منه خلعة ولاصلة، وأبلغ صاحبه الخبر فسار إلى ماردين وصاحبها قطب الدين بن ألبي، وهو ابن أخت شاه أرمن وابن خال عزالدين وحموه، وحضر صحبة شاه أرمن دولة شاه صاحب بدليس وأرزن، وسار

عز الدين من الموصل في عسكره جريدة من الاثقال، فلما سمع صلاح الدين باجتماعهم سيّر الى ابن اخيه تقي الدين، وهو بحماه يستدعيه ، ورحل الى رأس عين، فلما سمعوا برحيله تفرقوا، فعاد شاه أرمن الى خلاط واعتذر بأنه يجمع العساكر ويعود، وعاد عز الدين الى الموصل، وأقام قطب الدين بماردين، وسار صلاح الدين فأقام تحت ماردين أياماً...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله العباسي، والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في الشرق لاجل فتح البلاد التي ليست تحت يده.

ذكر فتوحات صلاح الدين رحمه الله في هذه السنة:

منها فتح آمد:

قال ابن كثير: في الرابع عشر من محرم هذه السنة تسلم السلطان صلاح الدين مدينة آمد وحصنها بعد قتال وحصار شديد من يد صاحبها بعدما حمل ماأمكنه من حواصله وأمواله وأثقاله مدة ثلاثة أيام، ولما تسلم السلطان البلد وجد فيه شيئاً كثيراً من الحواصل وآلات الحرب والسلاح، حتى قيل إنه وجد برجاً مملوءاً بنصول النشاب، وبرجاً آخر فيه مائة ألف شمعة وأشياء يطول شرحها، ووجد فيها خزانة فيها ألف ألف مجلد وأربعون ألف مجلد فوهبها كلها للقاضي الفاضل، فانتخب منها حمل سبعين حماراً، ثم وهب السلطان البلد بما فيه لنور الدين محمد بن قرا أرسلان، وكان في خزانتها ثلاثة آلاف ألف دينار،

فامتدحه الشعراء على ذلك، وعلى حسن صنيعه الجميل، ومن أحسن ماقاله بعضهم في ذلك من جملة قصيدة له في السلطان:

قل للملوك تنحوا عن ممالكم
فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

وفي المرآة: وفي يوم الاحد عاشر المحرم تسلم السلطان آمد ودخل إليها، وجلس في دار الامارة، ثم سلمها وأعمالها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان، وكان قد وعده بها لما جاء إلى خدمته، ولما أخذها صلاح الدين خرج الرئيس محمود بن علي ومحمد بن كيكلدي منها بأموالهما وحريمهما إلى الموصل، وأعانهما صلاح الدين بدواب تنقل بعض قماشهما، فحملا ماخف حمله وعجزا عن حمل كثير من الذخائر والاسلحة.

وفي تاريخ المؤيد: في العشر الأول من محرم هذه السنة ملك صلاح الدين آمد بعد حصار وقتال وسلمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان ابن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا.

وفي تاريخ ابن العميد: وفي سنة تسع وتسعين وخمسمائة سار السلطان الملك الناصر صلاح الدين من مصر إلى الرها ففتحها، ثم سار إلى الموصل فنازلها واستشفع صاحبها عز الدين مسعود بن مودود من الخليفة الناصر لدين الله، فشفع فيه الخليفة فرحل صلاح الدين عن الموصل، ونزل على سنجار فحاصرها ثم تسلمها وأحسن إلى رعيتها، ثم توجه إلى حرزم فأخربها، ثم كتب إلى الخليفة يطلب منه آمد، فأجابه الخليفة وبعث إليه بتقليدها، فوصل إليه التقليد في ذي الحجة من هذه السنة، ثم سار السلطان إلى آمد فنازلها لثلاث بقين من ذي الحجة وفتحها بالامان في العشر الاول من محرم سنة ثمانين وخمسمائة وسلمها إلى نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا.

ومنها فتح عينتاب:

ولما فرغ صلاح الدين من أمر آمد سار وقطع الفرات قاصدا حلب، واجتاز في طريقه بعينتاب وبها ناصح الدين محمد بن خمارتكين، فنزل إليه وقام بالضيافة، فأبقاها عليه.

وفي تاريخ المؤيد: لما فتح صلاح الدين آمد سار إلى الشام، وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها، ثم سار إلى عينتاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي، وكان قد تسلم عينتاب من نور الدين، فبقيت معه إلى الآن، فحاصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها إليه، فأقره السلطان عليها وبقي في خدمة السلطان ومن جملة أمرائه، ثم سار السلطان إلى حلب.

ومنها فتح حلب:

ولما فرغ السلطان من أمر عينتاب سار إلى حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود.

وقال ابن كثير: سار السلطان في بقية المحرم إلى مدينة حلب فنازلها وحصرها، وقاتله أهلها قتالاً جيداً وجرح أخو السلطان تاج الملوك بوري ابن أيوب جرحاً بليغاً فمات منه بعد أيام، ثم اتفق الحال بين السلطان وبين صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر على عوض أطلقه السلطان وهو أن يرد عليه سنجار ويسلمه البلد، فخرج عماد الدين زنكي وجاء إلى خدمة السلطان وعزاه في أخيه ونزل عنده في المخيم، ونقل أثقاله إلى سنجار، وزاده السلطان خابور والرقة ونصيبين وسروج، واشترط عليه ارسال العسكر في الخدمة للغزاة وودعه السلطان، وكان أهل حلب ينادون على عماد الدين زنكي: «ياحمار بعت حلب بسنجار»، وكان تسلم السلطان حلب في صفر، وصعد إلى قلعتها يوم

الاثنين السابع والعشرين من صفر، وعمل له الامير طمان وليمة عظيمة، وكان يوماً مشهوداً، ثم إن السلطان رحمه الله أسقط عن حلب وعن سائر بلاد الجزيرة المكوس والضرائب، وكذلك عن بلاد الشام ومصر، ثم أرسل الى عساكره ليجتمعوا إليه ليتصدى لقتال الفرنج الملاعين، لانهم عاثوا في البلاد يميناً وشمالاً في غيبة السلطان واشتغاله ببلاد الجزيرة، وكان السلطان قد بشر بفتح بيت المقدس حين فتح حلب، وذلك أن الفقيه مجد الدين ابن جهبل الشافعي رأى في تفسير أبي الحكم المغربي عند قوله تعالى: ﴿ألم* غلبت الروم* في أدنى الأرض﴾ [الروم١-٣] الآية ، البشارة بفتح بيت المقدس في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، واستدل على ذلك بأشياء، فكتب في ورقة وأعطاها للفقيه عيسى الهكاري ليبشر بها السلطان فلم يتجاسر على ذلك خوفاً من عدم المطابقة، فاعلم بذلك القاضي فخر الدين بن الزكي، فنظم معناها في قصيدة يقول فيها:

وفتحكم حلب الشهباء في صفر
قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

وقدمها للسلطان، فتشوقت همة السلطان إلى ذلك، فلما افتتحها ـ كما سيأتي إن شاء الله تعالى ـ أمر القاضي فخطب يومئذ، وكان يوم الجمعة، ولما بلغه ان ابن جهبل هو الذي اطلع على ذلك أولاً، أمره أن يدرس، فدرس على الصخرة درساً عظيماً وأجزل له العطاء، وأحسن عليه الثناء.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة سار صلاح الدين من تل خالد إلى حلب، واستدعى إليها العساكر من جميع الجهات، فاجتمع عليها خلق عظيم، وتحقق عماد الدين أنه ليس به قبل، فأشار إلى حسام الدين طمان أن يسفر له مع صلاح الدين في اعادة بلاده إليه وتسلم حلب منه، فرفع الحديث، وتقررت القاعدة ولم يشعر أحد من العسكر ولا من الرعية حتى تم الامر واستفاض، فاستعلم العسكر من عماد الدين فأعلمهم

وأذن لهم في تيسير أنفسهم، فأرسلوا عنهم وعن الرعية عز الدين جرديك وزين الدين بكتكين فاستحلفوا صلاح الدين على العسكر وعلى أهل البلد، وخرجت العساكر إلى خدمته بالميدان الاخضر فخلع عليهم، ونقل عماد الدين أقمشته وآلاته من القلعة، ثم نزل إلى السلطان، وسيره معه في الميدان، وأنزله عنده في الخيمة، وقدم له تقدمة سنية وخيلاً، وخلع على جماعة من أصحابه وسار من يومه إلى سنجار، وطلع صلاح الدين الى القلعة وتسلمها في صفر من هذه السنة.

وفي المرآة: نازل صلاح الدين حلب في سادس عشر المحرم، ونزل بالميدان الاخضر، وباشر القتال بكرة وعشياً، وزحف يوما أخوه تاج الملوك بوري فجاءه سهم في عينه، فوقع مريضاً، فمات في الثالث والعشرين من صفر، ثم علم عماد الدين زنكي، أنه لاطاقة له به، وقال لحسام الدين طمان: اخرج إلى صلاح الدين وسله في الصلح، فخرج سراً ولم يعلم به أحد، فقرر الصلح وأن يرد إليه سنجار وأعمالها والخابور ونصيبين، وأنه يسلم إليه قلعة حلب، وعلم الناس بالصلح فخرجوا إلى صلاح الدين فخلع عليهم، وجعل أهل حلب تحت القلعة اجانة وثيابا وصابوناً وصاحوا عماد الدين: يافاعل، ياصانع، انزل فاغسل الثياب مثل المخانيث، مايصلح لك غير هذا، وعملوا فيه الاشعار، وغنوا بها في الاسواق، منها:

وبعت بسنجار خير القلاع
ثكلتك من بائع مشتري

فلما كان اليوم الثالث والعشرون من صفر توفي تاج الملوك أخو السلطان، فحزن السلطان عليه حزنا عظيما وجلس للعزاء، وكان يبكي ويقول: ماوفت حلب بشعرة من أخي، وقيل إنه قال: ماغلت حلب ببوري، والأول أليق بالسلطان لانه ماكان في البيت مثل بوري.

وسار عماد الدين إلى سنجار، وأقام السلطان بالمخيم غير مكترث

بحلب لما جرى عليه من وفاة أخيه، ثم صعد القلعة سلخ صفر، فأنشده القاضي:

وفتحه حلبا بالسيف في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

فعجب الناس من رمية من غير رام، فكان كما قال، ولكن بعد أربع سنين، وهو الذي خطب بالقدس لما فتحه السلطان، وولى السلطان القضاء بحلب مجير الدين ابن زكي الدين، والقلعة سيف الدين أركش، والديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد، فأعطى تل باشر وتل خالد لبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين بن ياروق، وأعطى قلعة أعزاز لعلم الدين سليمان بن جندر، ثم رحل عن حلب يوم السبت الثاني والعشرين من ربيع الآخر، ودخل دمشق ثالث جمادى الاولى.

وفي تاريخ المؤيد: ولما استقر الصلح بين صلاح الدين وعماد الدين، عمل عماد الدين دعوة للسلطان واحتفل، فبينما هم في سرورهم إذ جاء انسان، فأسر إلى السلطان بموت أخيه بوري فوجد عليه في قلبه وجدا عظيماً وأمر بتجهيزه، ولم يعلم السلطان في ذلك الوقت أحدا ممن كان في الدعوة بذلك حتى لايتكدر عليهم ماهم فيه، وكان يقول: ماوقعت علينا حلب رخيصة بموت بوري، وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم.

ومنها: فتح حارم.

ولما ملك السلطان حلب أرسل إلى حارم وبهاسرخك الذي ولاه الملك الصالح بن نور الدين محمود في تسليم حارم، وجرت بينهما مراسلات فلم ينتظم بينهما حال، وكاتب سرخك الفرنج، فوثب عليه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم إلى السلطان، فتسلمها.

وفي تاريخ بيبرس: وكان السلطان: قد أنفذ إلى حارم من يتسلمها، فدافع الوالي الذي بها، فسار بنفسه إليها فتسلمها، وعاد إلى حلب، ورتب فيهاولده الظاهر غازي ومعه الامير يازكوج، ثم رحل عنها وسار نحو دمشق.

وقال ابن كثير: رحل السلطان من حلب في أواخر ربيع الاخر بجيوشه وعساكره، وقد جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي، وولى قضاءها لمحيي الدين بن الزكي، فاستناب له فيها نائباً، ورجع هو مع السلطان في خدمته، فاجتاز بحماه ثم بحمص، ثم على بعلبك، ثم دخل دمشق في ثالث جمادى الاولى في أبهة عظيمة، وفي نيته الخروج سريعاً إلى قتال الافرنج.

ذكر مافعل السلطان صلاح الدين بعد دخوله دمشق:

ولما دخل السلطان دمشق في التاريخ المذكور وأقام أياما، برز منها في أول جمادى الآخرة في جحافله قاصداً نحو القدس الشريف، فانتهى إلى بيسان فنهبها وخربها، وشن الاغارات على تلك النواحي، ثم سار ونزل على عين جالوت، وأرسل بين يديه سريه هائلة فيها الامير جرديك النوري، وطائفة من النورية، وجاولي مملوك عمه أسد الدين شيركوه فوجدوا جيش الكرك من الفرنج قاصدين إلى أصحابهم نجدة لهم، فتواقفوا معهم فقتلوا من الافرنج خلقاً كثيراً، وأسروا مائة أسير، ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد، ثم عادوا في آخر ذلك اليوم، وبلغ السلطان، وأن الافرنج قد اجتمعوا للقتال، وتصدى لهم فنكلوا عنه، فقتل منهم خلقاً كثيراً من أطرافهم، وجرح مثلهم، فرجعوا ناكصين على أعقابهم خائفين منه غاية المخافة.

وفي تاريخ بيبرس: لما خرج السلطان من دمشق عبر نهر الاردن، ورأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً، فقصد بيسان فأخربها، وأغار على

ماهنـاك، فاجتمـع الفرنـج وجاءوا إلى قتـاله، فلما رأوا كثـرة من معـه من العسكر لم يقـدموا عليـه، فأقـام عليهم، وأحـاطت بهم عسـاكره تـرميهم بـالسهـام وتنـاوشهـم القتال، فلـم يخرجـوا، وأغـار المسلمـون على تلـك الاعمال، ونالوا منها مـالم يكونوا يطمعون فيه من الغنـائم والنهب وعادوا فأعطـاهم دستورا ليستريحوا، ودخل دمشـق فأقام بها إلى شهر رجـب من هذه السنة.

وفي المرآة: لما وصل السلطان من دمشق إلى بيسـان هرب أهلها، فقدم بين يديه جـرديك النوري وجاولي الاسـدي، وجماعة من النوريـة، فجاءوا الى عين جالوت والفـرنج على الفولة، فصـادفوا على عين جالوت طـائفة مـن الافـرنج، فقتلـوا منهـم مقتلـة عظيمـة، وأسروا مائة فـارس، ورحـل السلطان الى الفـولة يطلب المصاف فتحصـن الفرنج بالـراجل، ولم يخرج منهـم أحـد، فلما كـان في الليـل ساروا طـالبين عكـا، ورحـل السلطـان خلفهم يقاتـل الساقة، فقتل منهـم جماعة، فدخلوا عكـا، وعاد السلطان على جينين فنهب وأحرق وعاد الى دمشق.

ذكر مسير السلطان الى الكرك:

وفي رجـب من هـذه السنة سـار السلطان إلى الكـرك فحاصرهـا، وفي صحبته تقي الديـن عمر بن أخيه، وقد كتب إلى أخيـه الملك العادل أبي بكـرليحضر إليه ليـوليـه حلب وأعمالها، وفـق مـاكـان طلبه منـه، فحضر العادل إليه، واستمر الحصار على الكرك مدة شهر رجب، فلم يظفر منها بطلب، وبلغه ان الافـرنج كلهم اجتمعوا ليمنعوا منه الكـرك، فكر راجعاً الى دمشق في منتصف شعبان، وسار معه أخوه العادل، وأرسل ابن أخيه الملك المظفـر تقي الدين عمـر الى مصر نائباً عنه، وفي صحبتـه القاضي الفـاضل، ووصـل السلطان إلى دمشـق، وبعث أخـاه العادل على مملكـة حلب وأعمالها، واستقـدم ولده الملـك الظاهر إليـه، وكذلـك نوابـه ومن

يعز عليه، وإنما أعطى السلطان صلاح الدين آخاه العادل حلب ليكون قريباً منه، فإنه كان لايقطع أمراً دون مشورته، واقترض السلطان صلاح الدين من أخيه العادل مائة ألف دينار، وتألم الظاهر على مفارقة حلب، وكانت إقامته في حلب ستة أشهر، ولكنه لايظهر ما في نفسه، ولكن يظهر ذلك على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

وفي تاريخ بيبرس: لما توجه صلاح الدين الى الكرك استدعى أخاه العادل أبا بكر من مصر، وكان قد أرسل إليه يطلب منه مدينة حلب وقلعتها، فأجابه إلى ذلك وأمره أن يخرج معه بأهله وماله فوافاه إلى الكرك في العسكر المصري، فكثر جمعه، وحصر الحصن من الربض، ونصب عليه المجانيق، ثم رحل عنه، وعاد إلى دمشق واستصحب أخاه العادل معه، وسير ابن أخيه تقي الدين إلى مصر نائبا عنه، وأعطى أخاه العادل حلب وقلعتها وأعمالها وسيره إليها، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن عز الدين مسعود صاحب الموصل قبض على نائبه مجاهد الدين قايماز، وكان إليه الحكم في جميع البلاد، وكان الذي أشار عليه بذلك عز الدين محمود وشرف الدين ابن أبي الخير، وهما من أكابر أمرائه، لهوى بنفسيهما، ولما أراد القبض لم يقدم على ذلك لقوة مجاهد الدين، فأظهر أنه مريض، وانقطع عن الركوب عدة أيام، فدخل إليه مجاهد الدين وحده، وكان لايمنع من الدخول عليه ولاعلى النساء، فلما دخل عليه قبض عليه وركب لوقته إلى القلعة واحتوى على الاموال التي لمجاهد الدين وخزائنه، وولى عز الدين محمود القلعة، وجعل ابن صاحب الغراف أمير حاجب، وكان تحت مجاهد الدين إربل وأعمالها ومعه فيها يوسف بن زين الدين علي وهو صبي صغير ليس له من الحكم شيء، والحكم والعسكر إلى مجاهد الدين وتحت حكمه أيضاً

جزيـرة ابن عمر، وهي لمعـز الدين سنجرشـاه بن غازي بن مـودود، وهو أيضاً صبي صغير، وبيـده أيضاً شهرزور وأعمالها ونوابه فيهـا، ودقوقا وبها نائبه، وقلعة عقر الحميدية، ونائبه فيهـا، ولم يكن بقي لعز الدين صاحب الموصل بعد أن أخذ صـلاح الدين البلاد الجزرية سوى الموصـل، وكانت قلعتها بيـد مجاهد الـدين، وهـو على الحقيقة الملـك، فلما قبض عليـه عز الدين امتنع صـاحب إربل والجزيرة من طاعته، وأرسـل الخليفة إلى دقوقا من حـاصرها وأخذهـا، ولم يحصل لعز الـدين مسعـود مماكان بيـد مجاهد الديـن قايماز غير شهـرزور، وصارت إربـل وجزيـرة ابن عمـر أضر شيء على صاحـب الموصل، وأرسـل صاحبهـا إلى صلاح الـدين بـالطاعـة له والكون في خدمته، وكـان الخليفة الناصر لدين الله قـد سير صدر الدين شيخ الشيـوخ،، ومعه بشير الخادم إلى صلاح الـدين في الصلح مـع عز الدين صاحـب الموصل، فأجاب صلاح الديـن إلى الصلح على أن تكون إربل والجزيـرة معه، ويقـرر الصلح، وإنما قـوى طمع صـلاح الديـن في الموصل لقبـض صاحبها على مجاهد الـدين، فلما تبين لعز الديـن مسعود الضرر الذي ترتب على امساك المجاهد قـايماز أمسك الذين أشاروا عليه باعتقـاله وأفرج عنـه في الاعتقال، ثم رحل صـلاح الدين عـن الموصل، ونازل سنجار على ماذكرناه عن قريب.

ومنها أنـه سار اسطول من مصر في البحـر فلقوا بطسة فيها نحـو من ثلاثمائة من الفرنـج، نجدة لفرنج الساحل فقاتلـوهم فظفر بهم المسلمون وأخذوهم أسرى، فقتلـوا بعضهم وأبقوا بعضهم أسرى وغنمـوا ما معهم، وعادوا إلى مصر سالمين.

ومنهـا أنه سـارت جماعـة كبيرة مـن الفرنـج مـن نـواحي الـداروم إلى نواحـي مصر ليغيروا وينهبوا، فسمـع بهم المسلمون فخـرجوا إليهـم على طريق صدر وأيلة، فأفرج الفرنـج من بين أيديهم على ماء يقال له العبلة، وسبقـوا المسلمين إليه، فـأتاهـم المسلمـون وهم عطـاش قد أشرفـوا على

الهلاك، فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء، فأنشأ الله سحابة عظيمة بلطفه، فمطروا منها حتى رووا، وكان الزمان قيظا والحر شديداً وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم فقتلوهم، ولم يسلم منهم الا الشريد، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب، وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله ورحمته.....

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير شاه أرمن:

اسمه سقمان بن ظهير الدين بن ابراهيم بن سقمان القطبي، صاحب اخلاط، توفي في هذه السنة، وعمره أربع وستون سنة، وكان ملكه لها في سنة احدى وعشرين وخمسمائة، وكان بكتمر مملوك أبيه بميا فارقين لما مات شاه أرمن، فلما سمع بموته سار من ميافارقين، ووصل الى أخلاط، وكان أكثر أهلها يريدونه، وكان مماليك شاه أرمن متفقين معه، فأول وصوله استولى على أخلاط وملكها، وجلس على كرسي شاه أرمن، واستقر في ملكه حتى قتل في سنة تسع وثمانين وخمسمائة، كما سنذكره إن شاء اله تعالى.

تاج الملوك بوري بن أيوب:

أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكنيته أبو سعيد، ولد في ذي الحجة سنة ست وخمسين وخمسمائة، وكان الله تعالى قد جمع فيه مكارم الاخلاق، ولطف طباع، وكرماً وشجاعة وفضلا وفصاحة، وكان أديبا شاعراً مترسلاً، وله ديوان شعر، ذكره العماد في الخريدة وأثنى عليه...

وتوفي يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر من هذه السنة على مدينة حلب من جراحة أصابته لما حصرها أخوه السلطان صلاح الدين

يوسف كما ذكرناه، وعمره ثلاث وعشرون سنة - بوري بضم الباء الموحدة وسكون الواو، وكسر الراء، وفي آخره ياء ساكنة، وهو اسم للذئب بلغة الترك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، وأصحاب البلاد على حالهم، غير أن صاحب ماردين وصاحب الغرب ماتا في هذه السنة.

ذكر وفاه صاحب ماردين:

وهو قطب الدين ايلغازي بن نجم الدين ألبي بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين كان جوادا شجاعاً عادلا منصفا عاقلاً، توفي في جمادى الاخرة من هذه السنة، وكان والده ألبي قد ملك في سنة سبع وأربعين وخمسمائة، وبقي في ملك ماردين الى مدة لم نقف على انتهائها، وملك بعده ابنه ايلغازي المذكور، واستمر فيها إلى أن مات في هذه السنة، وخلف أولاداً أطفالا، فأقيم في الملك بعده ولده حسام الدين بولق أرسلان، وقام بتدبير المملكة وترتيبها مملوك والده نظام الدين البقش حتى كبر بولق أرسلان وكان به هوج وخبط، فمات وأقام البقش بعده أخاه الأصغر ناصر الدين أرتق أرسلان بن ايلغازي، ولم يكن له حكم، بل الحكم إلى البقش والى مملوك للبقش اسمه لؤلؤ، وكان قد تغلب على استاذه البقش بحيث كان لايخرج البقش عن رأي لؤلؤ لمذكور، ولم يكن لناصر الدين أرتق أرسلان صاحب ماردين من الحكم شيء، وبقي الامر كذلك الى سنة احدى وستمائة، فمرض البقش، وأتاه ناصر الدين يعوده، فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ فضربه ناصر الدين بسكين فقتله، ثم عاد إلى البقش فقتله وهو مريض، واستقل ناصر الدين أرتق أرسلان بملك ماردين من غير منازع.

وفي تاريخ بيبرس: لما مات قطب الدين ايلغازي، ملك بعده ابنه حسام الدين بولق أرسلان، وهو طفل وقام بتربيته وتدبير ملكه نظام الدين البقش مملوك أبيه، وكان شاه أرمن صاحب خلاط، خال قطب الدين، فحكم في دولته وأحسن البقش تربية الولد، وتزوج بأمه، فلما كبر الولد لم يمكنه البقش من المملكة لانه كان أهوج، ولم يزل كذلك إلى أن مات الولد المذكور، وكان له أخ صغير أصغر منه اسمه قطب الدين، فرتبه البقش مكانه، والله أعلم.

ذكر غزوة صلاح الدين يوسف الكرك مرة أخرى ثانية:

وذلك لانه رأى ان فتحها الآن أنفع للمسلمين فإن الفرنج الذين فيها يقطعون الطريق على الحجاج والتجار في البراري والبحار، فأرسل إلى العساكر الحلبية والجزرية والمصرية، فقدم تقي عمر من مصر، وكان بها كما ذكرنا ومعه القاضي الفاضل وجاء من حلب الملك العادل أبوبكر أخوه، وقدم ملوك الجزيرة وسنجار وتلك النواحي والاقطار، وأخذهم كلهم في جيشه، فسار بهم إلى الكرك فأحدقوا بها في رابع عشر جمادى الاولى من هذه السنة، وركب عليها المجانيق، وكانت تسعة، وأخذ في حصارها، وضيق على أهلها، واشتد القتال، فملك المسلمون الربض، وبقي الحصن وله خندق عمقه ستون ذراعاً، فألقى فيه الأحجار والاخشاب والاتربة، ورأى الفرنج شدة القتال وعرفوا عجزهم عن حفظ الحصن، فأرسلوا إلى ملكهم وفرسانهم يستنجدونهم، فاجتمعوا من كل مكان، فلما بلغ صلاح الدين خبر مسيرهم رحل عن الكرك الى طريقهم ليقاتلهم، ويعود بعد أن يهزمهم إلى الكرك، فقرب منهم ولم يمكنه الدنو منهم لضيق الارض وصعوبتها، وانتظر خروجهم من ذلك المكان، فلم يخرجوا، فرحل وسار إلى مدينة نابلس، ونهب كل ماعلى طريقه من البلاد، فلما وصل الى نابلس أحرقها وأخربها، وقتل وأسر

وسبى وسار إلى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام، وكان فيها جماعة أسرى من المسلمين فاستنقذهم، وكان بها الاقساء والرهبان وعندهم الاسرى والودائع، فطلبوا الامان فأمنهم على أن يطلقوا من عندهم من الاسرى، ثم سلك الغور وطلع على عقبة فيق، وعاد إلى دمشق.

وفي بيبرس: لما فرغ من سبسطية رحل إلى جينين فنهبها، وعاد إلى دمشق وبث سراياه يمينا وشمالا يغنمون ويخربون

وفي تاريخ ابن كثير: لما كان صلاح الدين على الكرك بلغه أن الافرنج قد اجتمعوا له كلهم فارسهم وراجلهم ليمنعوا منه الكرك، فانشمر عنها وقصدهم ونزل على حسي تجاههم، ثم صار الى ماعير فانهزمت الفرنج قاصدين الى الكرك، فأرسل وراءهم من قتل منهم مقتلة عظيمة، وأمر السلطان الجيوش بالاغارة على السواحل لخلوها من المقاتلة فنهبوا نابلس وماحولها من القرايا والرساتيق، ثم عاد السلطان الى دمشق، وأذن للعساكر بالانصراف إلى بلدانهم، وأمر ابن أخيه تقي الدين عمر الملك المظفر أن يعود إلى مصر بعسكره، وكذلك امر لاخيه العادل ان يعود الي حلب، وأقام السلطان بدمشق ليؤدي فرض الصيام.

وقدمت على السلطان خلع الخليفة فلبسها وألبس أخاه الملك العادل وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، ثم خلع السلطان خلعة على نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، وخرتبرت، وآمد، التي اطلقها له السلطان.

وفي المرآة: وكان عند صلاح الدين رسل الخليفة شيخ الشيوخ عبد الرحيم، وبشير الخادم، وكانا مريضين فطلبا العود الى بغداد فاذن لهما، فمات بشير بالسخنة وشيخ الشيوخ بالرحبة.

وذكر في النوادر السلطانية أن دخول السلطان صلاح الدين إلى دمشق كان يوم السبت سابع جمادى الا خرة من سنة ثمانين وخمسمائة، وفي هذا الشهر وصل رسل الخليفة ومعهم الخلع، وفيه أيضاً وصلت رسل ابن زين الدين مستصرخاً إلى السلطان يخبرون ان عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إربل مع مجاهد الدين قايماز، وأنهم نهبوا وأحرقوا، وأنه نصر عليهم وكسرهم.

ذكر بقية الحوادث:

منها انه وقع الصلح بين صلاح الدين وصاحب طرابلس، وذلك قبل مسيره الى الكرك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والثمانين بعد المائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان صلاح الدين مخيم بظاهر حماة، وكان بلغه في أواخر السنة الماضية أن صاحب الموصل نازل إربل، فبعث صاحبها يستصرخ بالسلطان، فركب من فوره إليه في جنوده وعساكره، فسار إلى بعلبك، ثم حمص ثم حماة، فأقام بها أياماً، ثم سار إلى حلب، وتلقاه أخوه العادل، واجتمعت اليه العساكر، فخرج منها في صفر لقصد الموصل، فقطع الفرات من البيرة، وجاء الى حران فقبض على صاحبها مظفر الدين بن زين الدين، وهو أخو زين الدين صاحب إربل، وكان وصول السلطان الى حران في الثاني والعشرين من صفر، وكان أمر لسيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العسكر إلى رأس عين، وكان قبضه على صاحب حران في السادس والعشرين من صفر وذلك لشيء كان جرى منه، وحيث كان

بلغّه عنه رسوله، فأنكر عليه، وأخذ منه قلعة حران والرها ثم اعتقله تأديبا له إلى مستهل ربيع الاول، ثم أخرجه وخلع عليه وطيب قلبه، وأعاد عليه قلعة حران وبلاده التي كانت بيده، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعده بها.

وفي تاريخ ابن العميد: وكان صاحب حران مظفر الدين قد بذل خطه بخمسين ألف دينار يوم وصول السلطان إلى حران، فلم ير السلطان لذلك أثراً، فغضب عليه واعتقله، ثم سار السلطان من حران في ثاني ربيع الاول إلى رأس عين ووصل إليه في ذلك اليوم رسول قليج أرسلان صاحب الروم يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل وماردين، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك، فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصلها يوم السبت الثامن من ربيع الاول، وجاء إليه عماد الدين بن قرا أرسلان ومعه عسكر نور الدين صاحب ماردين، فالتقاهم السلطان وأكرمهم.

وقال ابن كثير: فتلقاه الملوك من كل ناحية، وجاء إليه عماد الدين أبوبكر بن قرا أرسلان صاحب بلاد بكر وآمد، ثم بلغه موت أخيه ابن قرا أرسلان، فطلب دستوراً ليأخذ مملكته فأعطاه، ثم سار السلطان فنزل على الاسماعيليات قريباً من الموصل، وذلك يوم الثلاثاء الحادي عشر من ربيع الاول، وكان يصل من العسكر كل يوم نوبة جزيلة تحاصر الموصل، وجاء إليه هناك صاحب إربل زين الدين، وأرسل السلطان ضياء الدين ابن كمال الدين الشهرزوري إلى الخليفة يعلمه بما عزم عليه من حصار الموصل، وإنما مقصوده ردهم إلى طاعة الامام ونصرة الاسلام.

ثم سار السلطان ونزل على الموصل، وهو نزوله الثاني عليها، فحاصرها، وكان القتال يعمل كل يوم ويخرج المواصلة اليه عراة يقاتلون،

وأرسل عز الدين مسعود صاحب الموصل والدته وابنة عمه نور الدين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء الاتابكيات وجماعة معهن يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم، فردهم خائبين، واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين، لاسيما وفيهن بنت نور الدين، وضيق على أهل الموصل، فأشاروا عليه بقصد أخلاط، لما رأوا أنه لاطمع لهم في الموصل، وقالوا: ماتفوت الموصل، فسار إلى أخلاط، وفي مقدمته ناصر الدين محمد وتقي الدين عمر، فوصلوا ميا فارقين وبها يرنقش مملوك صاحب آمد، فامتنع عليهم وقال: أنا وصي يتامى أستاذي قطب الدين، وبعد هذا فالأمر للخاتون والدتهم، فأرسل إليها صلاح الدين خادما ووعدها أن يتزوجها ويزوج ابنه احدى بناتها، فأجابت وسلمت إليه ميافارقين، وأعطاها الهتاخ، وأعطى يرنقش جبل جور، وكان الحاكم على خلاط الوزير مجد الدين ابن الموفق وهو الذي كاتب السلطان، فبعث إليه الفقيه عيسى ليكشف الحال، فغالط وقال: في القلعة سيف الدين بكتمر، وبها ابنة البهلوان زوجة شاه أرمن، وربما جاء البهلوان، فعاد الفقيه إلى السلطان بغير شيء، وجاء البهلوان بعساكر اذربيجان وهمذان، فنزل قريباً من اخلاط، وأرسل الى السلطان يقول: هذه البلاد لابنتي وهي في القلعة، والمصلحة ان تبقى المودة بيننا ودوام الصداقة، فرجع السلطان الى الجزيرة، ورجع البهلوان الى بلاده بعد ان حمل إليه سيف الدين بكتمر أموالا وهدايا، وولى السلطان على ميافارقين وديار بكر مملوكه سنقر الخلاطي، وعاد إلى الموصل، وهذه المرة الثالثة، وهي الاخيرة، فنزل الاسماعيليات، وقيل نزل على كفر زمار بدجلة، وكان الحر شديداً، فأقام مدة، وعزم على أن يشتي بذلك المكان، وفي هذه المنزلة أتاه سنجرشاه من الجزيرة، واستعد المواصلة للحصار، ومرض السلطان مرضاً شديداً خيف من غائلته، فرحل طالباً وهومريض، وكان يتجلد، ولم يركب في محفة، فوصل حران وهو شديد المرض، وبلغ غاية الضعف حتى أيس منه، وأرجف بموته، وكان رحيله من كفر زمار في مستهل شوال من هذه السنة فوصل إليه أخوه الملك العادل من حلب ومعه أطباؤها.

وفي المرآة: ولما كان السلطان على كفر زمار أشار أمراء عز الدين مسعود عليه بأن يخرج إليه الاتابكيات يشفعن إليه فخرجن ومعهن والدة عز الدين مسعود فأكرمهن ووعدهن الاحسان وقرر عماد الدين الصلح، وخطب للسلطان بالموصل، وأعطى عز الدين شهرزور والبوازيج، ووقف عليها قرية تعرف بباقيلا، ورحل عن الموصل يريد الجزيرة.

وقال العماد الكاتب: وكان السلطان قد لازم قراءة القرآن في شهر رمضان، واشتد الحر فمرض مرضاً شديداً فتناثر شعر رأسه ولحيته، وقيل إنه سقي، وضعف ضعفاً خيف عليه منه، وأرجف بموته، وأقام على نصيبين وقد أيسنا منه، ثم حمل في محفة إلى حران، فنزل في ظاهرها، وبنى داراً سماها دار العافية.

وفي تاريخ النويري: وجاءت رسل صاحب الموصل إلى السلطان وهو بحران بالاجابة إلى ماطلب. وهو أن يسلم صاحب الموصل الى السلطان شهرزور وأعمالها وولاية القراميلي وجميع ماوراء الزاب، وأن يخطب للسلطان على جميع منابر الموصل ومابيده، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير، ورضي السلطان بذلك، وتقرر الصلح، وأمنت البلاد، ثم رحل السلطان من حران وقد عوفي وعاد إلى دمشق في السنة الآتية.

وقال ابن كثير: ولما استقر الصلح بين صلاح الدين وبين المواصلة ـ كما ذكرنا ـ انقطعت خطبة السلاجقة والارتقية بتلك البلاد كلها.

قال: ولما جاء إليه أخوه العادل من حلب، ورآه في غاية الضعف أشار عليه بأن يوصي ويعهد، فقال: ماأبالي وأنا أترك من بعدي: أبا بكر، وعمراً وعليا وعثمانا، وأراد بأبي بكر أخاه العادل صاحب حلب، وأراد بعمر تقي الدين عمر صاحب حماة، وهو إذ ذاك صاحب مصر

وبها مقيم، وأراد بعثمان وعلي ابنيه الملك العزيز عثمان والملك الافضل علي، ونذر السلطان في ضعفه لئن شفاه الله تعالى من مرضه هذا ليصرفن همته كلها إلى قتال الكفار، ولايقاتل بعد ذلك مسلماً، وليجعلن اكبر همته فتح بيت المقدس ولو صرف في سبيل ذلك جميع مايملكه من الاموال والذخائر وليقتلن البرنس صاحب الكرك بيده، وذلك لانه نقض العهد الذي عاهد السلطان عليه، فغد بقافله نجار من مصر فأخذ أموالهم وضرب رقابهم بين يديه صبراً، وهو يقول: أين محمدكم ينصركم، وكان هذا النذر كله باشارة القاضي الفاضل، ثم إن الله عز وجل بكرمه وفضله عافاه مما كان ابتلاه به، فسارت البشائر بذلك في كل ناحية، ودقت البشائر وزينت.

قال ابن كثير: ثم ركب السلطان من حران بعد العافية، فدخل حلب، ثم اجتاز بحماه وحمص حتى دخل دمشق، وكان دخوله حلب يوم الاحد الرابع عشر من المحرم سنة اثنتين وثمانين، وكان يوماً مشهوداً لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام بها أربعة أيام، ثم رحل في ثامن عشر نحو دمشق، فلقيه أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بتل السلطان، ومعه أخته، ومعه خدمة عظيمة، ومنّ عليه بحمص موضع والده بحكم وفاته، ثم سار إلى دمشق فدخلها في الثاني من ربيع الاول من سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، وكان يوماً مشهوداً وصباحاً محموداً.

وفيها كان المنجمون بدمشق قد حكموا بأن يهب هواء مزعج برمل يهلك الناس، فحفروا أسراباً واختفوا فيها، فظهر كذب المنجمين.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الامير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه

صاحب حمص والرحبة، وهو ابن عم السلطان صلاح الدين، وزوج أخته ست الشام بنت أيوب، توفي بحمص، ثم نقلته زوجته ست الشام الى تربتها بالمدرسة الشامية البرانية، فقبره هو الاوسط بينها وبين أخيها الملك المعظم تورانشاه، صاحب اليمن، وقد خلف ناصر الدين محمد من الاموال والذخائر شيئاً كثيراً ينيف على الف الف دينار، وكانت وفاته يوم عرفة فجأة.

وقال النويري: وفي هذه السنة، ليلة عيد الاضحى، شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي فأصبح ميتاً، قيل إن السلطان دس عليه من سقاه سماً لما بلغه مكاتبته أهل دمشق في مرضه، ولما مات أبقى السلطان حمص وماكان بيد محمد على ولده شيركوه بن محمد بن شيركوه، وعمره اثنتي عشرة سنة، وخلف ناصر الدين محمد شيئاً كثيراً من الدواب والآلات وغيرها، فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص في عودته من حران، وأخذ أكثرها، ولم يترك الا مالا خير فيه.

وفي المرآة: وكان السلطان صلاح الدين يخافه، لانه كان يدعي أنه أحق بالملك منه، وكان بلغ السلطان عنه هذا، وكان قد فارق السلطان من حران وجاء إلى حمص، وتوفي يوم عرفة بقي يتناثر لحمه، وقيل انه سم، وقيل مات فجأة.

نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود :

صاحب حصن كيفا وآمد، مات في هذه السنة، وملك بعده ولده

سقمان، ولقبه قطب الـدين، وكان صغيرا، فقام بتدبير دولتـه وزيره القوام ابن سماقا الاسعردي.

وفي تاريخ بيبرس: مات نور الدين محمـد المذكور، لماكان صلاح الدين محاصراً للموصل، وخلف ولديـن، ملك الاكبر منهما واسمه سقمان، ولقبه قطب الديـن، فلما بلغ أخاه وفاته سـار ليملك بلاده فتعذر عليـه أمرها، فسـار إلى خرتبرت فملكهـا، وهي بيـد أولاده، ورجع صـلاح الديـن الى ميافـارقين، فحضر إليه ولد نـور الدين فأقـره على ملك أبيه، ومـن جملته آمد، وكانوا خافوا أن يأخذهـا منهم فلم يفعل، وردهم الى بلادهم وشرط عليهم أن يكـونوا تحت أمره وطـاعته، وجعـل معهم من جهتـه أميراً لقبه صلاح الدين من أصحاب والده.

الأمير الكبير سعد الدين مسعود بن معين الدين أنر

وكان من الامراء الكبـار ايام نور الدين محمود وصلاح الـدين يوسف، كما ذكرنـا، توفي في دمشـق في جمادى الاخرى من هـذه السنة، مـن جرح أصابه وهو في حصار ميافارقين.

الست خاتون عصمة الدين بنت معين أنر:

نائب دمشق وأتابك عساكرها قبل نور الدين محمود ـ كما تقدم ـ وقد كـانت زوجـة نور الـدين ـ كما تقدم ـ ثم خلـف عليها مـن بعده صـلاح الديـن في سنة ثـلاث وسبعين وخمسمائة، توفيـت في هذه السنـة، وكانت من أحسن النساء وأعفهن، وأكثرهـن صدقة، وهي واقفة الخاتونية الجوانية في محلة حجر الذهب، وخانقـاه خاتون ظاهر باب النصر في أول الشرف القبلي على بانيـاس، ودفنت بتربتهـا في سفح قـاسيون قـريبا مـن قبيبات الشركسية، ولها أوقـاف كثيرة، فأما الخاتونية البرانيـة التي هي على

القنوات محلة صنعاء الشام، ويعرف ذلك المكان الذي هي به بتل الثعالب، فهي من انشاء الست زمرد خاتون بنت جاولي، وهي أخت الملك دقاق لامه، وكانت زوجة زنكي ونور الدين صاحب حلب، وقد ماتت قبل هذا الحين كما تقدم.

وفي المرآة: ولها صدقات كثيرة وبر عظيم، بنت بدمشق مدرسة لاصحاب ابي حنيفة رضي الله عنه في حجر الذهب، قريبة من حمام ازكش، وتعرف بمدرسة خاتون، وكانت وفاتها في رجب، وبلغ السلطان صلاح الدين وفاتها، وهو مريض بحران، فتزايد مرضه وحزن عليها وتأسف، وكان يصدر عن رأيها.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثانية والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب مصر والشام وغيرهما، وكان قد تعافى من مرضه، ووجد نشاطاً، ورحل من البلاد الفراتية ووصل الى حلب يوم الاحد الرابع عشر من محرم هذه السنة، وكان يوماً مشهود الشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام فيها أربعة أياما ثم رحل في ثامن عشر من محرم نحو دمشق، فلقيه أسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه بتل السلطان ومعه أخته، ومعه هدية هائلة، ومن عليه بحمص، فأقام أياما يعتبر تركة أبيه، وكان قد خلف أموالا عظيمة وجواهر ومناطق الذهب والفضة، فكان مبلغ التركة ألف ألف دينار، وكان القاضي نجم الدين ابن عصرون حاضر القسمة . فقام يوماً فوقعت من تحت ذيله منطقة مجوهرة، فنسبه العادل إلى ما لايليق به، وكان نجم الدين منزها عن ذلك لانه كان غنيا جواداً، شريف النفس، فحلف للعادل انني ماعلمت بها وصدق، وإنما الحساد وجدوا طريقاً للقول، ثم سار يطلب جهة دمشق، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الاول، وكان يوما لم ير مثله فرحاً وسروراً، ثم قرر في ملك دمشق ولده الافضل علياً، ونزل العادل أبو بكر عن حلب لصهره زوج ابنته، الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين، وأرسل السلطان أخاه العادل صحبة ولده عماد الدين عثمان، الملقب بالملك العزيز على ملك مصر، ويكون العادل أتابكه، وله اقطاعات عظيمة جدا، وعزل عن نيابتها تقي الدين عمر، فعزم عمر على الدخول إلى بلاد إفريقية، فلم يزل السلطان يكاتبه ويتلاطف به، ويترفق له حتى أقبل بجنوده نحوه، فأكرمه وأقطعه حماة وبلاداً كثيرة معها، وقد كانت له قبل ذلك بسنين، وزاده على ذلك مدينة ميافارقين.

وقال النـويري: ولما بعث السلطان ولـده الملك العزيز صحبـة العادل الى مصر، استدعى تقي الدبن من مصر بسبب أن السلطان تجنى عليه في البـاطـن، فإنـه ظـن أنـه أخـرج ولـده من مصر ليملـك مصر إذا مـات السلطان، وقيل إنه توقف عن الحضـور، وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش المستولي على بعض بلاد إفـريقية وبرقة من المغرب، وبلـغ السلطان ذلك فنهاه، وأرسـل يستدعيه ويـلاطفه، فحضر إليـه، ولما حضر إليه زاده على حماه منبج، ومعرة النعمان، وكفـر طاب، وميافارقين، وجبـل جور بجميع أعمالها، واستقر الملـك العادل أبو بكـر، والملك العـزيز عثمان بمصر، ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل أقطعه عوضها حران والرها.

وفي تـاريخ بيبرس: سير السلطـان صـلاح الديـن الى ابـن أخيه تقـي الديـن عمر يستـدعيه مـن مصر إلى الشام والسبـب في ذلك أن صـلاح الدين لما استنابه بمصر ضم إليـه ولده الافضل، وكان أكبر ولده، فخاف صـلاح الديـن في مـرضه أن يتـولى تقـي الديـن البـلاد، ولايجلس ولـده الافضل، فأرسل في طلبه لهذا السبب، وأشـار عليه بعض أمرائه أن يعزل العادل من حلـب، فوقعت هذه الاشارة مـن نفسه موقعاً موافقـاً لغرضه، فلما حضر أخوه العادل إليه، أوصى صلاح الـدين ولده الظاهر غازي أن يلتمس من عمه حلب ليهبها له، فسأله ذلـك، فأجابه عمه العادل لوقته وكتب لـه بها، فتسلمها واستقـر بها وأولاده من بعـده، وكان تقـي الديـن يومئذ بمصر فبلغـه ان صلاح الدين يـريد عزله عنهـا، فأراد أن يهرب إلى المغرب، فإن قراقـوش فتح بالمغرب مدنا كثيرة فـأشار عليه أمراء مصر أن لايـروح إلى المغرب، وأن يمضي إلى عمـه ويستعطفه، فتجهـز وخرج مـن مصر، وسير صـلاح الديـن ولـده العزيـز صحبـة عمه العـادل الى مصر، ورتب ولده الظاهر غازي بحلب عـوضاً عن عمه العادل، ولما وصل تقي الدين الى صلاح الدين أنعم عليه بميافارقين.

وفي النوادر السلطانية: ولما تقرر الامر المذكور بين هؤلاء الملوك، قال العادل: اجتمعت بالملك العزيز والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للملك العزيز: اعلم يامولاي أن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأنا أعلم ان المفسدين كثير، ولاتخلو غدا ممن يقول عني مالايجوز، ويخوفك مني فإن كان لك عزم تسمع فقل إلي حتى لاأجيء، فقال: لاأسمع، وكيف يكون ذلك، ثم التفت وقلت للملك الظاهر: أنا أعرف أخاك ربما سمع في أقوال المفسدين، وأنا مالي الا أنت، وقد قنعت منك بمنبج متى ضاق صدري من جانبه، فقال مبارك، وذكر كل خير.

وفي النوادر أيضاً أن الملك الظاهر سار إلى حلب حتى أتى إلى العين المباركة، وسير في خدمته شحنة حسام الدين بشارة، ووالیا عیسی بن بلاشو، فنزل في يوم الجمعة بعين المباركة، وخرج الناس الى لقائه في بكرة السبت تاسع جمادى الاخرة من هذه السنة، وصعد القلعة المحروسة ضحوة النهار، وفرح الناس به فرحاً شديداً.

وأما تقي الدين فإنه لما وصل، سار السلطان الى لقائه، فلقيه بمرج الصفر في ثالث عشرين شعبان من هذه السنة وأعطاه حماة، وسار إليها.

وكان قد عقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح فتمم ذلك ودخل بها يوم الاربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان، ودخل الملك الافضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد الدين في شوال من هذه السنة.

وفيها حضر القمص صاحب طرابلس الى الملك الناصر صلاح الدين، واتفق معه ان يفتح له جميع الساحل، وأطلق له الملك الناصر جميع الاسرى والذين كانوا عنده، وجرد معه عسكراً الى الساحل، وفتح

الطريق من مصر إلى الشام، وسار فيها التجار، ثم إن القمص(٢٠) المذكور نافق وأخذ قافلة من التجار، ودخل بلاد الفرنج، فحلف الملك الناصر لئن ظفر به ليقتلنه بيده، وكان ذلك سبب فتوح الساحل.

وفيها كانت فتنة بين التركمان والاكراد ببلاد الجزيرة، والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور وأذربيجان، وقتل فيها من الخلق مالايحصى ودامت عدة سنين، وانقطعت الطرق، ونهبت الاموال واريقت الدماء، ثم إن مجاهد الدين قايماز نائب صاحب الموصل جمع عنده رؤساء الاكراد والتركمان وأصلح بينهم، وخلع عليهم، وانقطعت الفتنة العظيمة.

وفيها دخل سيف الاسلام الى مكة ومنع من الاذان بحي على خير العمل، وقتل جماعة من العبيد كانوا يؤذون الناس، وأغلق أمير مكة باب البيت، وصعد إلى أبي قبيس، فأرسل إليه وطلب المفتاح من صاحب مكة، فأبى من انفاذه فقال سيف الاسلام لرسوله: قل لصاحبك: إن الله نهانا عن أشياء فارتكبناها، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: لاتأخذوا المفتاح، من بيت شيبة، فنأخذه ونستغفر الله تعالى، فبعث إليه المفتاح.

وفيها قسم السلطان صلاح الدين البلاد بين أولاده وأهله برأي القاضي الفاضل، فإنه لما مرض أشاروا عليه بذلك.

وفيها ظهر الخلاف بين الافرنج، وتفرقت كلمتهم، وكان ذلك سببا لسعادة الاسلام.

وفيها غدر ابرنس الكرك واسمه ارناط، وكان أخبث الافرنج، وأشرهم، فقطع الطريق على قافلة جاءت من مصر إلى الشام، وفيها خلق عظيم ومال كثير، فاستولى على الجميع قتلا وأسراً ونهباً، فأرسل اليه

السلطان يوبخه على مافعل ويقول: أين العهود والمواثيق، رد ما أخذت، فلم يلتفت وشن الغارات على المسلمين وفتك فيهم، فنذر السلطان دمه، وأقام السلطان بدمشق يجهز للقاء العدو، واستدعى العساكر من المشرق والمغرب.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة وكان أولها يوم السبت، وكان يوم النيروز، وذلك أول سنة الفرس، واتفق أنه أول سنة الروم ايضاً، وهذا اليوم الذي نزلت فيه الشمس برج الحمل، وكذلك كان القمر في برج الحمل أيضاً.

قال ابن الاثير: وهذا شيء يبعد وقوع مثله.

ذكر غزوات السلطان صلاح الدين وفتوحاته:

كان السلطان رحمه الله قد جمع عساكره في آخر السنة الماضية، ولما استهلت هذه السنة التي أولها يوم السبت برز السلطان من دمشق في هذا اليوم، وقيل برز في أثناء الشهر، أعني محرم هذه السنة فسار إلى رأس الماء، فنزل ولده الافضل هناك في طائفة من الجيش، وتقدم السلطان ببقية الجيش الى بصرى، ثم خيم على قصر أبي سلامة ينتظر قدوم الحجاج وفيهم أخته ست الشام وابنها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ليسلموا من معرة ابرنس الكرك.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة تقدم أمر صلاح الدين إلى جميع البلاد بأن يحضروا للغزاة في سبيل الله، فحضر من الجند عسكر الموصل وعسكر ديار بكر، مقدمهم الامير زين الدين صاحب حران، وعسكر الشام مقدمهم ابن دلدرم، وعسكر مصر وحلب وغيره، وخرج من

دمشق وقصد الكرك، كما نذكر عن قريب، انشاء الله تعالى.

وفي المرآة: خرج السلطان من دمشق غرة المحرم بعساكر الشام، ونزل بصرى يرتقب وصول الحاج، وقد كان بلغه ان ابرنس الكرك يرتقب وصولهم، فخاف من غدره، ووصل الحاج في اواخر المحرم، وخلا سر السلطان منهم فسار الى الكرك على مانذكره.

وذكر صاحب النوادر السلطانية: لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة عزم صلاح الدين على قصد الكرك، فسير الى حلب من يستحضر العسكر وبرز من دمشق في منتصف المحرم، فسار حتى نزل بأرض بصرى منتظراً لاجتماع العساكر المصرية والشامية، وأمر العساكر المتواصلة اليه بشن الغارة على مافي طريقهم من بلاد الساحلية ففعلوا ذلك، وأقام رحمه الله بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام، وأمنوا غائلة العدو، ووصل قفل مصر الشتوي، ووصل معهم بيت الملك المظفر، وماكان له بالديار المصرية، وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالهم بالفرنج، بأرض انطاكية وبلاد ابن ليون، وذلك أنه كان قد مات ملك الافرنج الى لعنة الله ووصى لابن أخته بالملك، وكان الملك المظفر بحماة، وبلغ الخبر السلطان، فأمرهم بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد نائرته، وكان وصول تقي الدين الى حلب في السابع والعشرين من محرم هذه السنة، فنزل في دار عفيف الدين بن زريق، وأقام بها الى ثالث صفر، ثم انتقل الى دار طهان.

وفي تاسع صفر سار الملك المظفر بعسكر حلب الى حارم وأقام بها ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل، وعاد السلطان الى الشام، وكان وصوله الى السواد في خامس عشر ربيع الاول من هذه السنة.

وفي يوم الخميس سابع عشر نزل بعشترا ولقيه ولده الملك الافضل، ومظفر الدين وجميع العساكر، ومن منتصف ربيع الآخر عرض السلطان

العساكر على تل يعرف بتل تسيل، وتقدم الى ارباب الميمنة بحفظ موضعهم والى اصحاب الميسرة كذلك، والى اصحاب القلب بمثله، ثم ذكر صاحب هذا التاريخ وقعة حطين، ولم يذكر ماجرى قبل هذه الواقعة من الأمور، ونحن نذكرها مفصلة بعون الله ولطفه.

ذكر محاصرة الكرك:

لما قدم الحاج في أواخر صفر، نزل السلطان على الكرك، وقطع ماحوله من الاشجار، ورعى الزروع، وأكلوا الثمار، وجاءته العساكر المصرية، فتلقاهم بالقريتين، واجتمع عنده خلق كثير من العرب والترك والكرد وغيرهم، وكذلك فعل بشوبك مافعل بالكرك من المضايقة والمحاصرة واذهاب ضياء تلك الضياع، وازالة نقاء تلك البقاع، واقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين والملك الافضل ولده مقيم برأس الماء في جمع عظيم من العسكر.

وتوافت الجيوش الشرقية، فنزلوا عند الافضل، وقعدوا ينتظرون الاشارة من السلطان.

ذكر بعث الافضل الى اعمال طبرية سريته:

ثم ان الملك الافضل بعث سريته نحو أعمال طبرية وأمرهم بالغارة على حين غره، وجعل مقدمهم مظفر الدين بن زين الدين علي كوجك، وجعل على عسكر دمشق قايماز النجمي، وعلى عسكر حلب دلدرم الياروقي، فساروا وصبحوا صفورية، فخرج إليهم الفرنج في جمع عظيم من الداوية والاسبتارية وغيرهما، فوقع حرب عظيم، وكاد المسلمون أن ينهزموا وينفلوا، فثبت قايماز النجمي في صدورهم وكذلك مظفر الدين وحمل عليهم من ناحيته ودلدرم من ناحيته، فقتلوا وغنموا وأسروا وسبوا

ورجعوا سالمين غانمين، وجاء الخبر، بالفتح والظفر للسلطان صلاح الدين وهو بالكرك، وكان هذا مقدمة الفتح.

وفي تاريخ بيبرس: ندب السلطان ولده الافضل للغارة على عكا والسواحل، وسير صحبته مظفر الدين كوكبري، فلما وصلوا صفورية التقوا الفرنج، ووقع القتال، فهزم الله عز وجل الافرنج، وقتلوا منهم جماعة كثيرة، منهم مقدم الاسبتارية، وأسر الباقون وسيرت البشائر الى البلاد، ولما انتهى الخبر إلى السلطان رجع عن الكرك ولحق بالعسكر الذي مع ولده الافضل، وقد تلاحقت إليه العساكر والنجدات.

وفي المرآة: كان السلطان صلاح الدين قد أمر ولده الافضل عند مسيره الى الكرك أن ينزل على رأس الماء بطائفة من العسكر ينتظر باقي العساكر الشرقية، فأنهض الافضل منهم طائفة للغارة على طبرية، وجعل مقدم العساكر الشرقية مظفر الدين، وعلى عسكر الشام صارم الدين قايماز النجمي، فنزلوا طبرية وتقدم بدر الدين دلدر م مقدم عسكر حلب الى طبرية، فخرج إليه مقدم الداوية والاسبتارية ومعهم جماعة فقاتلوهم فقتلهم دلدر م وأسر بعضهم، وسار إلى صفورية ففعل كذلك، وعاد بالأسارى الى الافضل وهو على شعب الشهاب، وجاء السلطان الى تسيل ـ قرية غربي نوى ـ وصعد على تلها وعرض العساكر، وسر بما رأى، واندفع يوم الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الاول نحو فيق، ورحل الافضل بالعساكر معه فالتقوا على الاقحوانة، وكان يقصد المسير الى العدو يوم الجمعة تبركاً بأدعية الخطباء، وخيم على ساحل البحيرة في اثني عشر الفاً من الفرسان، وأما الرجالة فيقال إنهم كانوا في ثمانين الفا مابين فارس وراجل، فنزلوا صفورية، وتقدم السلطان الى طبرية.

ذكر محاصرة طبرية وفتحها:

لما تقدم السلطان الى طبرية نصب عليها المجانيق، ونقب أسوارها، ففتحها يوم الخميس الرابع عشر من ربيع الآخر، وتمنعت القلعة عليه وبها زوجة القومص، وتقدم الفرنج فنزلوا لوبية يوم الجمعة عند طلوع الشمس، وملك المسلمون عليهم الماء، وكان يوماً حاراً، والتهب الغور عليهم، وأضرم مظفر الدين النار في الزرع، وباتوا طول الليل والمسلمون حولهم، فلما طلع الفجر يوم السبت قاتلوا الى الظهر، ثم صعدوا الى تل حطين على مانذكر الآن وقعة حطين.

وقال ابن كثير: لما سار السلطان الى طبرية فتحها، وقد كانت طبرية تقاسم بلاد حوران والبلقاء وماحولها من الجولان وتلك الاراضي كلها بالنصف، فاراح الله المسلمين من تلك المقاسم، وتوفرت عليهم.

وقال العماد: وكانت الست صاحبة طبرية قد حمتها ونقلت إليها كل ماملكته وحوته، فلما جاء إليها السلطان أمنها على أصحابها وأموالها، وخرجت بنسائها ورجالها وسارت الست إلى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها وحالها، وعادت طبرية آهلة آمنة بأهل الايمان، ثم عين السلطان لولايتها صارم الدين قايماز النجمي، وهو من أعيان الامراء.

وقال ابن كثير: ولما اجتمع السلطان بولده الافضل، خيم على عشترا، وسمع الفرنج بذلك فاجتمعوا كلهم وتصالحوا فيما بينهم، ودخل بينهم قومس صاحب طرابلس، ونقض العهد، وابرنس الكرك في جمع عظيم قيل كانوا خمسين ألفاً، وقيل ثلاثاً وستين ألفاً، وقد خوفهم القومص بأس المسلمين، فاعترض عليه برنس الكرك فقال له: لاشك أنك تحب المسلمين وتخوفنا من كثرتهم، والنار لاتخاف من كثرة الحطب، فقال القومص لهم: ما أنا إلا واحد منكم وسترون غب ماأقول لكم، وكانت

طبرية للقومص، وكان قد هادن السلطان، ودخل في طاعته كما ذكرنا، فأرسلت الفرنج إليه القسوس والبطريق ينهونه عن موافقة السلطان.

وأصل ملك القومص طبرية أنه كان لطبرية ملك يقال له أماري بن فلك، هلك في آخر سنة تسع وستين وخمسمائة وخلف ولداً مجذوماً قد سقطت أعضاؤه، فوضع الفرنج التاج على رأسه ورضوا به مع عيبه حتى لايخرج الملك من بينهم، فبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكاً مطاعاً، فلما حس بهلاكه أحضر البطريق والقسوس وأكابر دولته وكان له ابن أخت صغير، وقال لهم: يكون هذا ملكاً ، ولكن القومص أراد ان يستبد بالملك فلم يوافقه الداوية، وقالوا: يلزمك العمل بشروط الوصية وتكفل بالأمر وهو مغلوب في مقاومة السلطان ومحاربته ليتقوى بذلك على الملك، فاشتد امره الى أن مات الصغير، فانتقل الملك منه إلى أمه، وبطل ماكان في نية القومص من استبداده بالملك، فانتقل الملك إليها، واجتمع الفرنج عليها، فقالت لهم: زوجي أقدر على الملك وهو أحق به، وأخذت التاج من رأسها فوضعته على رأسه، ثم إن الملك الكبير طالب القومص بحساب ماتولاه، فاستنصر القومص عليه بالسلطان صلاح الدين فهادنه وتقرب منه، ثم لما اجتمعت العساكر الاسلامية من الشامية والمصرية والجزرية جاء الملك الى القومص بنفسه، وقبح له رأيه في مهادنته مع السلطان، ورجعه عن ذلك حتى اتفقت الافرنج كلهم على المسلمين.

ذكر وقعة حطين:

ولما اجتمع الفرنج لملتقى السلطان فارسهم وراجلهم وساروا الى السلطان ركب السلطان من عند طبرية، وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر والتقى الجمعان، واشتد القتال، ولما رأى القومص شدة الامر حمل على من قدامه من المسلمين، وكان هناك تقي الدين صاحب حماة، فأفرج له، وعطف عليهم، فنجا القومص ووصل الى

طرابلس، وبقي مدة، ومات غما لعنه الله، وأخذ المسلمون الفرنج من كل ناحية، وأبادوهم قتلا وأسراً، وكان في جملة من أسر ملك الفرنج الكبير، والبرنس أرناط صاحب الكرك، وصاحب جبيل، وابن الهنفري، ومقدم الداوية وجماعة من الاسبتارية، وما أصيب الفرنج من حين خرجوا الى الشام في سنة احدى وتسعين وأربعمائة الى الآن مصيبة مثل هذه الوقعة، وهي الوقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس.

وقال ابن الاثير: وكان في جملة الاسارى جميع ملوكهم سوى القومص صاحب طرابلس فإنه انهزم في أول الواقعة، وأخذ صليبهم الاعظم عندهم، وهو الذي يزعمون أنه هو الذي صلب عليه المصلوب، وقد غلفوه بالذهب، ورصعوه باللآلي والجواهر النفيسة ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾[الفرقان ٢٦].

وقال ابن واصل: ذكر العماد أن السلطان الملك الناصر خلص في هذه النوبة ثلاثين ألف أسير من المسلمين، وأسر من الكفار مائة ألف أسير، وكان يوماً عظيماً حتى أنه ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم وهو يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج، قد ربطهم بطنب خيمة، وباع بعضهم أسيراً بنعل لبسها في رجله.

وفي المرآة: ولما فتح الله للمسلمين ونصرهم على الافرنج، جيء الى السلطان بصليب الصلبوت وهو مرصع بالجواهر واليواقيت في غلاف من ذهب، وهو عند النصارى مثل المسيح، والذي أسر الملك درباس الكردي، والذي أسر ابرنس ابراهيم غلام المهراني، فلما رآهم السلطان نزل وسجد شكراً لله تعالى، وجاء إلى خيمته فاستدعاهم فجلس الملك عن يمينه، وابرنس الكرك الى جانب الملك، ونظر السلطان الى الملك وهو يلهث عطشاً، فأمر له بقدح من ثلج وماء فشربه وسقى الابرنس،

فقال السلطان: ماأذنت لك بسقيه فلم سقيته؟ وكان السلطان قد نذر أن يقتل الابرنس بيده، فقال له: ياملعون ياغدار، خلعت وغدرت ونكثت، وجعل يعدد عليه غدراته، ثم قام إليه فضربه بالسيف حل كتفه، وتقدم المماليك وقطعوا رأسه، وأطعموا جثته الكلاب، فلما رآه الملك قتيلاً خاف وطار عقله، فأمنه السلطان وقال: هذا غدار كذاب، غدر غير مرة.

وقال ابن كثير: ولما تمت الوقعة أمر السلطان بضرب مخيم عظيم، وجلس فيه على سرير المملكة، وعن يمينه أسرة وعن يساره مثلها، وجيء بالأسارى يسحبون في قيودهم، فضربت أعناقهم وفيهم جماعة من مقدمي الداوية والاسبتارية، بين يديه صبراً، ولم يترك فيهم من كان يذكر الناس عنه شرا، ثم جيء بالملوك فأجلسوا عن يمينه ويساره على مراتبهم، فأجلس ملكهم الكبير عن يمينه وبجنبه أرناط برنس الكرك وبقية الملوك عن يساره، فجيء السلطان بشراب من الجلاب مثلوج فشرب ثم ناول الملك فشرب، ثم ناول ارناط فشرب، فغضب السلطان وقال: أنا سقيتك ولم آمرك أن تسقيه، هذا لاعهد له عندي، ثم تحول السلطان إلى خيمة داخل الخيمة، واستدعى أرناط، فلما وقف بين يديه قام إليه بالسيف، وقال: أنا أنوب عن رسول الله صلى الله عليه، ثم دعاه الى الاسلام فامتنع فقتله.

وقال العماد: قام السلطان فضرب عنقه بيده.

قلت: إنما فعل ذلك بيده، إقامة لنذره الذي نذر حين مرض[٢١] كما ذكرناه.

ثم قتل السلطان جميع من كان في الاسرى من الداوية والاسبتارية صبراً، وأراح الله المسلمين من هذين الجنسين النجسين، ولم يسلم ممن

عرض عليه الاسلام منهم الا القليل، فيقال إنه بلغ القتلى ثلاثين ألفاً وكذلك الاسرى كانوا ثلاثين ألفاً، وكان جيش الافرنج ثلاثة وستين ألفاً، ومن سلم منهم مع قتلهم أكثرهم جرحى، فماتوا ببلادهم بعد رجوعهم، ثم أرسل برؤوس الاسرى ورأس أعيان القتلى، وبصليب الصلبوت صحبة القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق ليودعوا في قلعتها، فدخل بالصليب منكوساً بين يدي القاضي إلى دمشق، وكان يوماً مشهوداً.

وذكر في النوادر ماملخصه أن صلاح الدين اندفع قاصداً نحو بلاد العدو في وسط نهار الجمعة السابع عشر من ربيع الآخر من هذه السنة، وكان بلغه أنهم اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض عكا، فقصد نحو المصاف معهم، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة، ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل، وكان نزوله يوم الاربعاء الحادي والعشرين من ربيع الآخر، ولما رآهم لايتحركون نزل جريدة على طبرية وترك الاطلاب على حالها قبالة وجه العدو، وزحف على طبرية فأخذها في ساعة من النهار، ثم التقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وذلك في آخر الخميس الثاني والعشرين من ربيع الآخر، وحال الليل بين الفريقين فتبايتا على مصاف شاكين في السلاح إلى صبيحة الجمعة الثالث والعشرون منه، فركب العسكران وتصادما وذلك بأرض تسمى اللوبية، فحال الليل بينهما أيضاً، ولما كان صباح السبت الرابع والعشرين منه ووقع القتال، نصر الله المسلمين بعونه ولطفه، فلم ينج منهم واحد، واعتصمت طائفة أخرى بتل يقال له تل حطين، وهي قرية عند قبر شعيب عليه السلام، ثم ذكر ماذكرنا، ثم قال: ولما كان يوم الاحد الخامس والعشرين من ربيع الآخر نزل السلطان على طبرية وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

ـ ١١٢٨٤ ـ

ذكر فتح عكا:

وفيها لغتان المدّ والنسبة إليها عكاوي، وعكة بالهاء، ولما فرغ السلطان من أمر طبرية سار إلى عكا، فنزل عليها يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر، ففتحها صلحاً يوم الجمعة، وأخذ ماكان بها من حواصل وأموال وذخائر ومتاجر، واستنقذ من كان بها من المسلمين، فوجدوا بها أربعة آلاف أسير منهم، ففرج الله عنهم، وأمر بإقامة الجمعة بعكا، فكانت أول جمعة أقيمت بالساحل بعد أن أخذه الفرنج من نحو تسعين سنة.

وقال العماد الكاتب: وكان السلطان جعل للفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري كل مايتعلق بالداوية، من منازل وضياع فأخذها بما فيها من غلات ومتاع، ووهب عكا لولده الافضل، وقال: ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الاولى فأقمنا بها الجمعة، وأعدنا الكنيسة العظمى جامعاً، وخطب جمال الدين عبد اللطيف ابن الشيخ أبي النجيب الشهرزوري، فإنه تولى بها القضاء والخطبة.

وفي المرآة: نازل السلطان صلاح الدين عكا يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر وليس بها من يحميها، لأن وقعة حطين أبادتهم، وكانوا ثلاثين ألفاً، فطلبوا منه الامان على نفوسهم ومايقدرون على حمله فأمنهم فدخلها يوم الجمعة غرة جمادى الاولى وغنم المسلمون أموالاً لاتحصى، ولما دخلوا عكا ركز كل واحد رمحه على دار فأخذها ومافيها، ولم يحضر بهذه الفتوح العادل سيف الدين أخو السلطان، وكان بمصر، فجاء ففتح في طريقه مجدل يابا، ويافا على ماذكره، وحضر الملك العزيزلانه قدم مع العسكر المصري، ومضى إلى مصر وماعاد اجتمع بأبيه وفارق أباه في شعبان والسلطان على صور.

وكتب العماد الكاتب إلى بغداد كتاباً أوله: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون﴾ [الانبياء ١٠٥] والحمد لله على انجاز هذا الوعد وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد، وجعل من ﴿بعد عسر يسراً﴾[الطلاق ٧] وأحدث بعد أمر أمراً وهو الامر الذي ماكان الاسلام يستطيع عليه صبراً، وخوطب الدين بقوله: ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾ [طه ٣٧] فأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، والاخرى في هذه الدولة التي عتق فيها من رق الكآبة، والزمان لهيبته قد استدار، والحق ببهجته قد استنار، والكفر قد ردّ ماعنده في استعار، والخادم شرح في هذا الفتح العظيم والنصر الكريم مايشرح صدور المؤمنين ويسوء وجوه الكافرين ويورد من البشرى ماأنعم الله من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر سلخه، وتلك ﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾ [الحاقة ٧] عدموا فيها نفوساً وجسوما، فأصبحوا قد هووا في الهاوية ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ [الحاقة ٦٩] وأصبحت البلاد إلى الاسلام ضاحكة، كما كانت بالكفر باكية، ففي يوم الخميس فتحت طبرية، ويوم الجمعة والسبت كانت الكسرة التي ماأبقت منهم بقية لايقوم لهم بعدها قائمة ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾[هود ١٠٢] وهي أم البلاد، وأخت ﴿إرم ذات العماد﴾[الفجر٧] إلى غير ذلك من الكلمات.

ذكر فتح مجدل يابا:

ثم إن السلطان رحمه الله أرسل أخاه الملك العادل فنازل مجدل يابا وفتحه عنوة بالسيف.

وقال ابن كثير: وجاء العادل إلى السلطان بعد وقعة حطين، وفتح عكا، ففتح بنفسه حصوناً كثيرة.

وقال العماد الكاتب: ولما فتح السلطان مدينة عكا، أقام ببابها مخيماً، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمماً، وقد كان كتب إلى أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر، وهو بمصر، بما فتح الله له، فوصلت البشرى بوصول العادل باشراً، وللواء الحمد ناشراً، وأنه فتح حصن مجدل يابا، ومدينة يافا عنوة، واغتنمها غزوة

ثم إن السلطان فرق أمراءه إلى فتح البلاد، ففتح كل واحد منهم حصناً أو قلعة على مانذكره الآن إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح الناصرة وصفورية:

أرسل السلطان مظفر الدين كوكبوري الى الناصرة وصفورية ومعه حسام الدين طمان، فاستباح حماهما واستبى دماءهما ففتحهما، وغنم مافيهما من الاموال والذخائر، وجاء الى السلطان والاسارى بين يديه مقرنين في الاصفاد ومقادين في الاقياد.

وفي تاريخ المؤيد: وفرق السطان عسكره ففتحوا الناصرة، وقيسارية، وحيفا، وصفورية، ومعليا، والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا، بالسيف وغنموا وقتلوا وأسروا أهل هذه الاماكن.

ذكر فتح قيسارية:

أرسل السلطان بدر الدين دلدرم الياروقي، وغرس الدين قليج، وجماعة من الامراء إلى قيسارية، فافتتحوها بالسيف، وغنموا وأسروا وسبوا.

ذكر فتح نابلس:

أرسل السلطان حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين على سمت نابلس، ووصل الى سبسطية فتسلمها وتعجل مغنمها، ووجد مشهد

زكريا النبـي عليه السلام، قد اتخذه القسوس كنيسـة، وأعاده مشهداً ورده مسجداً ووضـع فيه منبراً، ثـم أناخ على نـابلس وحـاصرها، وطـال عليه حصارها، ولم يـزل عليها مقيماً ولقتالها مديماً إلى أن استأمنوا منـه فأمنهم، ففتحوا لـه القلعة، وملكهـا حسام الـدين، ثـم إن السلطان استنـابه على نابلس ومعاملتها.

ذكر فتح الفولة وغيرها من البلاد:

وكانـت الفولـة أحسن القـلاع وأحصنها، وأمـلأها بـالرجـال والعدد، وهـي للـداويـة حصـن حصين، ومكـان مكين، وكـان فيهـا مشتـاهـم ومصيفهم ، فلما اتفـق يوم المصاف، خـرجوا بأجمعهـم إلى مصرعهم، فلما كسروا أسروا وخسروا، وأسلموا الحصـن بما فيه إلى السلطـان، وكانـت فيه ذخائر عظيمة.

ثـم تسلم السلطـان جميع مـاكـان من تلـك النـاحية مـن البلاد مثل دبوريـة، وجينين، وزرعين، والطور، واللجـون، وبيسان، والقيمـون، وجميع مالطبرية وعكا من الولايات، والزيب والبعنة ومنوات، وغير ذلك.

ذكر فتح تبنين:

ولما حصلت تلك الممالـك والأعمال للسلطان، رسم لابن أخيـه المظفر عمر بن شاهنشاه بقصد حصن تبنين، وأن يتوكل على الله ويستعين.

وقال العماد: فوصلنـا إلى تبنين في ثلاث مراحل، ونزلنا عليـه بالنوازل، وبسطنا من المجانيـق عليها أيدي الغوائل,فلما أيسوا من الحيـاة، وعاينوا الممات سألوا الامان مـن السلطان، واستمهلوا خمسة أيام لينزلـوا بأموالهم، فـأمهلـوا، وأطلقـوا أسـارى المسلمين، فلما جلـوا البقعـة وأخلـوا القلعـة سيرهـم السلطان ومعهـم مـن العسكر المنصـور مـن أوصلهم إلى صـور،

ورتب في الموضع مملوكه سنقر، ووصاه بتأنيس النافر، وتعكيس الكافر، وأن يصلح خندقها وسورها.

وفي النوادر: نزل السلطان عليها يوم الاحد حادى عشر جمادى الاولى، وهي قلعة منيعة وكان بها رجال ابطال شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة، ونصر الله عليهم، وتسلمها يوم الاحد ثامن عشر الشهر المذكور عنوة، وأسر من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا متوكلا على الله.

ذكر فتح صيدا:

نزل عليها السلطان بعسكره يوم الاربعاء الحادي والعشرين من جمادى الاولى، فجاء رسل صاحبها بمفاتيحها وفتحت أبوابها، ودخل فيها المسلمون، وأقيمت بها الجمعة والجماعة.

ذكر فتح بيروت:

ثم رحل السلطان من صيدا إلى بيروت، فنزل عليها يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الاولى وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين منه، وذلك بعد قتال عظيم، وحصار شديد، ونقب لاسوارها، وظهر من تلك الايام ضراب شديد من الداوية فأخر الامر، ولما اشتد بهم الحال خرج أحد المقدمين يستدعي الامان، فأمنهم السلطان فنزلوا على الطاعة، وسلموا البلد في التاريخ المذكور.

وفي النوادر: لما فرغ بال السلطان من هذا الجانب رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها في هذا الوقت، لأن العسكر كانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب، وكان اجتمع في صور كل فرنجي بقي من الساحل، فرأى قصد عسقلان لان

أمرها كان أيسر، وكان السلطان فتح جبيل يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الاولى، وكان صاحب جبيل اسمه أوك، وهو الذي سلم جبيل الى السلطان وهو على بيروت.

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم:

ونزل السلطان عليها يوم الاحد السادس عشر من جمادى الاخرة، واجتمع السلطان بأخيه العادل عليها، وامتنع أهلها أشد الامتناع، وقاتلوا قتالاً عظيماً فضيق السلطان عليها بالرجال والقتال، ونصب المجانيق ونقب الاسوار، فلما ضاق عليهم الحال راسلهم الملك المأسور وقال: قد بان عذركم حين نقب السور، فترددت بينهم الرسالات، فقال لهم الملك المأسور لاتخالفوا لما أشير عليكم من الامر، فاسمعوني وأطيعوني واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم، فإني إذا تخلصت خلصت، وإذا استنقذت أنقذت، وخرج المقدمون وشاوروا الملك فسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة. وممن استشهد على عسقلان من الامراء الكبار ابراهيم بن حسين الهذباني وهو أول أمير افتتح بالشهادة، وختم بالسعادة، وكان السلطان قد أخذ في طريقه الى عسقلان الرملة ويبنى وبيت لحم، والخليل وأقام بها حتى أنه إذا سلم معاقلهم أطلقه، فسلم هذه المواضع الوثيقة.

ثم اجتمع بالسلطان ابنه الملك العزيز صاحب مصر على عسقلان، فقرت عينه بولده، واعتضد بعضده، وكان قد استدعى الاساطيل المنصورة فوافت والحاجب لؤلؤ المقدم فيها، وغنم الجيش والمسلمون من هذه الاماكن وسبوا شيئاً كثيراً لايحد ولايوصف، واستبشر الاسلام وأهله شرقاً وغرباً بهذا النصر العظيم والفتوحات الهائلة، وترك السلطان جيوشه ترتع في هذه الفتوحات والغنائم الكثيرة مدة شهور ليستريحوا ويجموا أنفسهم وخيولهم ليتأهبوا لفتح بيت المقدس الشريف.

واشتاع في النـاس أن السلطان على عـزم فتح بيـت المقدس، فقصـده العلماء والصلحـاء والمتطـوعـة مـن كل فـج عميـق، فعنـد ذلـك قصـد السلطان بيت المقدس بمن معه على مانذكره ان شاء الله.

وفي تـاريـخ بيبرس: ولما فتح السلطـان عكـا فـرق عساكـره الى جميـع الحصون الساحلية فتسلموها أولاً فأولاً، ولم يعد للفرنج قدرة على الدفاع، ولاسبيـل الى الاجتماع فتسلمـوا نابلـس وقيسـاريـة وصفوريـة والنـاصرة، واستخلف في عكـا ولده الافضـل، ثم رحـل على تبنين فحاصرهـا إلى أن تسلمهـا، ثـم نـزل على صيدا فتسلمهـا، ثـم سـار إلى بيروت فتسلمهـا، وتسلم أصحـابه جبيـل، ورحل إلى عسقلان فنـازلها وتسلمها ، ثـم تسلم الرملة: ثم الـداروم، ووصل إليه ولده العزيز مـن مصر وهو على عسقلان مهنيا بـالفتح، فـأقام عليها إلى أن تسلـم أصحابـه غزة. وبيـت جبريل، والنطرون بغير قتـال، وكان بين فتوح عسقـلان وبين أخذ الفـرنج لها ثمان وأربعون سنة.

وفي المرآة: وكان بين أخـذ الفرنج وبين خلاصهـا منهم خمسة وثـلاثون سنة، لانهم ملكوها في جمادى الاخـرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وفوض السلطـان القضاء والخطـابـة الى جمال الديـن عبد اللـه بـن عمر قـاضي اليمن، وتسلم السلطان هذه الاماكـن المذكورة في أربعين يوماً، أولها ثامن عشرين جمادى الاولى، وآخرها ثامن رجب.

وفي تاريـخ المؤيد: وفيها حضر المركيـس في سفينة إلى عكـا، و؛ يعلم المركيس بذلـك، واتفق هجوع الهواء فراسل المركيس الملـك الافضل وهو بعكا يقترح أمراً بعد آخر، والملـك الافضل يجيب المركيس إلى ذلك إلى أن هب الهواء، فـأقلع المركيـس إلى صور، واجتمـع عليه الفـرنج الـذين بها، وملك صور، وكان وصول المركيس إلى صور واطـلاق الفرنج الذين أخذ السلطان بـلادهم بـالامان، وحملهـم الى صور مـن أعظم أسبـاب الضرر التي حصلت، حتى راحت عكا، وقوي الفرنج بذلك.

ذكر فتح بيت المقدس شرفه الله واستعادته من أيدي النصارى بعد ثلاث وتسعين سنة:

ولما فتح السلطان صلاح الدين رضي الله عنه ماحول بيت المقدس من الاماكن المباركة، أمر العساكر فاجتمعت، والجيوش المتفرقة في البلدان للغنائم فائتلفت، وسارنحو البيت المقدس بتلك العساكر فنزل غربي بيت المقدس يوم الاحد الخامس عشر من شهر رجب من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وقد حصنت الفرنج لعنهم الله الاسوار بالمقاتلة، وكانوا ستين ألف مقاتل دون بيت المقدس أو يزيدون، وكان صاحب البلد يومئذ رجل يقال له باليان بن بارزان، وكان معه من سلم من وقعة حطين من الداوية والاسبتارية، فأقام السلطان بمنزله المذكور خمسة أيام، ثم سلم إلى كل طائفة من الجيش المنصور ناحية من أبرجة السور، ثم تحول إلى ناحية الشمال، لانه رآها أوسع وأنسب للمجال، وقاتل الفرنج دون البلد قتالا هائلا، واستشهد بعض أمراء المسلمين فحنق عند ذلك كثير من امراء الاسلام واجتهدوا في القتال وقد نصبت المجانيق والعرادات، فبادر السلطان رحمه الله بأصحابه إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور فنقبها فسقط ذلك الجانب، وخر البرج برمته.

وفي المرآة: وكان المنجمون قد قالوا للسلطان: تفتح القدس وتذهب عينك الواحدة، فقال: رضيت أن أفتحه وأعمى، وكان قد نزل على غربيه أولاً، ثم انتقل الى شماليه من باب العمود الى برج الزاوية، ومن هذا المكان أخذه الفرنج، وكان مشحوناً بالبطارقة من الخيالة والرجالة على مايزيد على ستين الفاً غير النساء والذرية، وقاتلوا قتالا شديداً.

وفي تاريخ بيبرس: قتل في أول يوم عز الدين موسى بن مالك، صاحب قلعة جعبر، فحزن السلطان عليه.

وفي النوادر: وكان نزول السلطان على القدس يوم الاحد الخامس عشر من رجب، ونصب عليه المنجنيقات، وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية، ولما شاهد الفرنج ذلك قصد أكثرهم السلطان وتشفعوا إليه أن يعطيهم الامان فامتنع وقال: لأأفتحها إلا بالسيف عنوة كما فتحتموها عنوة ولاأترك بها أحداً من النصارى إلا قتلته كما قتلتم أنتم المسلمين، فطلب صاحبها باليان بن بارزان من السلطان الامان ليحضره عنده فأمنه، فلما حضر ترقق له، وتشفع اليه بكل ممكن، فلم يجبه إلى الامان لهم، فقالوا: لئن لم نعط الامان رجعنا فقتلنا كل أسير من المسلمين بأيدينا وهم قريب من أربعة آلاف أسير، وقتلنا ذرارينا وخربنا الدور والاماكن الحسنة وأتلفنا مابأيدينا من الاموال والقينا قبة الصخرة، وبعد ذلك نقاتل قتال الموت فلا يقتل واحد منا حتى يقتل أعداداً منكم، فما يرجى بعد هذا من الخير؟ فلما سمع السلطان ذلك أجاب إلى الصلح على أن يبذل كل رجل منهم عن نفسه عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن كل صغير وصغيرة دينارين، وأن تكون الغلات والاسلحة والدور للمسلمين، ويتحولوا منها إلى مأمنهم، وهو مدينة صور، فكتب الصلح على ذلك، ومن لايبذل ماشرط عليه إلى أربعين يوما فهو أسير، فكان من أسر بهذا الشرط ستة عشر ألف انسان من الرجال والنساء والولدان، ودخل السلطان والمسلمون البلد يوم الجمعة قبل وقت الصلاة بقليل، وذلك يوم التاسع والعشرين من رجب.

قال العماد: وهو ليلة الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى إلى السموات العلى.

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وهذا أحد الاقوال في الاسراء والله أعلم.

وكان في القدس بعض نساء الملوك من الروم، قد ترهبت ومعها من الاموال والجواهر والعبيد والخدم شيء كثير، فطلبت الامان لنفسها ولمن معها فأمنها السلطان وسيرها إلى مأمنها، وخرجت زوجة الملك المأسور، وهي ابنة الملك ماري، وكانت الاخرى قد ترهبت، وتزهدت، ومعها من الاموال والجواهر والخيول والخدم شيء كثير، فخرجت واستأذنت السلطان في اجتماعها بزوجها، وكان محبوساً في برج نابلس، فأذن لها وسارت وأقامت عند زوجها حتى تخلص.

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير من الذهب، فتسلق المسلمون وقلعوه والفرنج ينظرون إليهم، فصاح الناس كلهم صيحة كادت الارض أن تميد بهم، أما المسلمون فصاحوا سروراً بالتكبير والتهليل، وأما الفرنج فصاحوا تغبنا وتوجعاً.

وقال ابن كثير رحمة الله عليه: ولم يتفق صلاة الجمعة يومئذ، يعني يوم دخولهم خلافاً لبعضهم ممن زعم أنها أقيمت يومئذ، وأن السلطان خطب بنفسه بالسواد يومئذ، والصحيح أن الجمعة لم يمكن إقامتها يومئذ لضيق الوقت وإنما أقيمت في الجمعة المقبلة، وكان الخطيب القاضي محيي الدين ابن علي القرشي، المعروف بابن الزكي، كما نذكره، ونظف المسجد الاقصى يومئذ مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير، وخربت دور للداوية كانوا قد ابتنوها غربي المحراب الكبير، وكانوا قد اتخذوا المحراب هرياً ومستراحاً، فنظف المسجد من ذلك كله، وأعيد الى ماكان عليه في الايام الاسلامية، والدولة المحمدية، وغسلت الصخرة بالماء الطاهر، وأعيد غسلها بماء الورد الفاخر، وأبرزت للناظرين، وقد كانت مستورة محجوبة عن الزائرين.

وفي المرآة: ودخل السلطان الصخرة وغسلها بماء الورد، وقيل غسلها بلحيته وهو يبكي، ومحا الصور منها، وقد كان الملك العادل نور الدين

محمود بن زنكي رحمه الله قد عمل منبراً بحلب وتعب عليه مدة وقال: هذا لأجل القدس الشريف، فأرسل السلطان صلاح الدين وأحضره من حلب، وجعله في الجامع الاقصى، ولما كان في الجمعة الثانية وأرادوا أن يقيموا به الجمعة حضر المسلمون بالحرم الشريف من كل فج عميق، فاجتمع من الاعمال الاسلامية عدد لايحصى، فلما أذن الظهر حضر السلطان بقبة الصخرة، وكان جماعة من الكبار والعلماء قد رشحوا أنفسهم للخطبة في ذلك اليوم وألفوا خطباً يخطبون بها، فلما كان وقت الخطبة رسم السلطان للقاضي محيي الدين بن زكي الدين أن يخطب، فرقا المنبر بأهبة السواد العباسية، وخطب خطبة بديعة، ثم إن السلطان رحمه الله أقام حرمته فوق ماكانت.

وفي المرآة: وكان حضر مع السلطان هذا الفتح زهاء على عشرة آلاف عمامة من جميع الاجناس وتطاول جماعة من الأعيان إلى الخطابة، فتذكر السلطان قول ابن زكي الدين:

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

قال القاضي الفاضل: فقد أنطق الله السلطان بالغيب، فأعطاه الخطابة، وابن زكي الدين قاضي القضاة بدمشق.

وقال ابن القادسي في ذيله: إن صلاح الدين خطب بالبيت المقدس وهو وهم منه، ثم إن السلطان فرق الأموال التي أخذها من الافرنج، وكانت نيفاً وثلاثمائة ألف دينار، على العلماء والفقهاء والصوفية.

ذكر مافعله السلطان صلاح الدين بعد فتحه القدس:

فمن ذلك تفرقته الأموال التي أخذها من الأفرنج ـ كما ذكرنا ـ ومن ذلك أنه جلس بعد صلاة الجمعة بعد أن خطب الخطيب، ودعا للخليفة

العباسي وللسلطان الملك الناصر صلاح الدين، وسمع وعظ الشيخ زين الدين أبو الحسن علي بن نجا المصري، لأنه بعد صلاة الجمعة جلس على كرسي للوعظ باذن السلطان، فوعظ الناس، وكان وقتاً مشهوداً، واستمر القاضي محيي الدين بن زكي الدين الخطيب بالناس في أيام الجمع أربع جمع، ثم قرر السلطان للقدس خطيباً مستقراً، وأمر الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري يعمل حول الصخرة شبابيك من حديد، ورتب لها اماما وراتباً، ووقف عليه رزقاً جيداً، وكذلك على امام المحراب الاقصى، وعمل للشافعية المدرسة الصلاحية، ويقال فيها الناصرية أيضاً، وكان موضعها كنيسة حنة أم مريم عليها السلام، ووقف على الصوفية رباطاً كان دار البترك إلى جانب القمامة، وأجرى على الفقهاء والفقراء الجامكيات والجرايات، وأرصد الختم والربعات في أرجاء المسجد الاقصى لمن يقرأ أو ينظر فيها من المقيمين والزائرين، وتنافس بنو أيوب فيما يفعلونه من الخيرات بالقدس الشريف للقائمين والظاعنين والقاطنين، وعزم السلطان على هدم قمامة وجعلها دكاً لتنحسم مادة النصارى عن بيت المقدس، فقيل إن هؤلاء لايتركون الحج إلى هذه البقعة ولو تركتها قاعاً صفصفا، وقد فتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه القدس وترك القمامة على حالها، فتركها صلاح الدين أيضاً تأسيا بأمير المؤمنين، أحد الخلفاء الراشدين، ولم يترك بها من النصارى سوى أربعة أنفس يخدمونها، وحال بين النصارى وبينها، وهدم المقابر التي كانت لهم عند باب الرحمة وعفى آثارها، وهدم ماكان هناك من القباب وعجل دمارها.

ومن ذلك أن السلطان أمر للعماد الكاتب أن يكتب كتاباً إلى بغداد بالفتح، وكان القاضي الفاضل بدمشق مريضاً لم يحضر هذا الفتح، فكتب في أوله: «﴿وعد ا لله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾ إلى قوله: ﴿من بعد خوفهم أمنا﴾ [النور ٥٤ ـ ٥٥] الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك

والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، وبدل الامن به من المخافة، وادخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى لخادم المقام النبوي ومنحه أخلص أوليائه، وأخص أصفيائه بعد أن انقرض من الملوك الماضية والقرون الخالية على حسرة تمنيه، وفوت ترجيه، وتقاصرت عنه الهمم، وتخاذلت عنه الامم، فله الحمد الذي حقق بفتحه ماكان في النفس، وبدل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالانس، وجعل عز يومه ماحياً ذل أمسه، وأسكنه العالم والفقيه بعد البطرك والقس، وعباد الصليب والشمس، وأخرج أهل يوم الجمعة من أهل يوم الاحد، وقمع من كان يقول بالتثليث أهل ﴿قل هو الله أحد﴾ وقد فتح الخادم بأمر الله من الداروم إلى طرابلس وجميع ماحوت مملكة الفرنج إلى نابلس، وغسلت الصخرة بدموع الباكين من المؤمنين، ونزع لباس اليأس بافاضة ثواب المحسنين، ورجع الاسلام الغريب منه إلى داره، وطلع قمر الهدى من سراره، وعادت الارض المقدسة إلى ماكانت عليه من التقديس، وأمنت المخاوف بها، وفيها فصاحة صباح السرى ومناخ التعريس، وأقصى المسجد الأقصى الأقصون من الله الابعدون، وتوافد إليه المصطفون المقربون وخرس الناقوس برحيل المسيحيين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين، وقال المحراب لاهله: مرحباً وأهلا، وشمل جماعة المسلمين ماجمع الله لهم فيه شملاً، ورفعت الاعلام الاسلامية على منبره، فأخذت من بره أوفى نصيب، وتلت بألسنة عزها: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ [الصف ١٣] وغسلت الصخرة بدموع المتقين من دنس الكافرين، وبعد أهل الالحاد من قربها بقرب الموحدين، وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بنيانه من التقوى إلى تأسيسه».

وذكر العماد فصولاً في هذا المعنى:

نكتة غريبة: قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الروضتين: وقد تكلم شيخنا أبو الحسن عن أبي محمد السنجاري في تفسير أبي الحكم

الاندلسي، يعني ابن حيان، في أول سورة الروم ــ أخباراً عن فتح بيت المقدس، وأنه ينزع من أيدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، قال السنجاري: ولم أره أخذ ذلك من علم الحروف، وإنما أخذه مما زعم من قوله: ﴿غلبت الروم* في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون* في بضع سنين﴾ [الروم ٢ـ٤] فبنى الامر على التاريخ كما يفعله المنجمون، ثم ذكر أنهم يغلبون في سنة كذا ويغلبون في سنة كذا على ماتقتضيه دوائر التقدير، ثم قال: وهذه الحالة وافقت اصابة إن صح أنه قاله قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه، قال: وليس هذا من قبيل علم الحروف، ولابد من باب الكرامات لانها لاتبان بحساب.

قال: وقد ذكر في تفسير سورة القدر أنه لو علم الوقت الذي نزل فيه القرآن، لعلم الوقت الذي يرفع فيه.

ذكر رحيل السلطان من القدس طالباً صور:

لما قرر السلطان صلاح الدين أمور القدس الشريف انفصل عنه في الخامس والعشرين من شعبان وسار حتى أتى على عكا، ثم سار منها إلى صور، وكانت قد تأخرت من بين تلك النواحي، وقد استحوذ عليها من بعد وقعة حطين رجل من التجار ويقال مركيس، فحصنها وضبط أمرها وحفر حولها خندقاً من البحر إلى البحر، وجاء السلطان بجيشه فحاصرها مدة استدعى بالاسطول من الديار المصرية في البحر، فاحتاط بها براً وبحراً، فعدت الفرنج في بعض الليالي على خمس شواني من الاسطول فملكتها، فأصبح المسلمون واجمين، وقد دخل البرد وقلت الازواد وكثرت الجراحات وكل الامراء من الحصارات، فسألوا من السلطان أن ينصرف بهم إلى دمشق في هذا الوقت حتى يستريحوا، ثم يعود إليها بعد هذا الحين فأجابهم على تمنع منه، وذلك أن السور من صور كان قد هدم أكثره ولم يبق الا الفرج والنجح، فتوجه إلى دمشق.

وفي المرآة: وفي شعبان سار السلطان إلى صور فوصلها غرة رمضان فوجدها مدينة حصينة وهي في البحر مثل السفينة، والبحر محيط بها من جوانبها، وليس لها طريق في البر إلا من مكان واحد فيه سبعة أبراج، وبها المركيس، وكان شجاعاً حازماً وقد انضم إليه جميع من كان بالقدس والساحل من الفرنج.

وفي النوادر: قدم الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين، صاحب حلب على أبيه، وهو على صور في الثامن عشر من شهر رمضان، وسرّ بوصوله سروراً عظيماً، وكان قد تركه بحلب ليسد ذلك الجانب لاشتغاله هو بأمر الساحل، وكان السلطان خلف أخاه العادل في القدس لتقرير قواعده فاستدعاه، فوصل إليه في خامس شوال، وسير من حاصر هونين فسلمت بأمان في الثالث والعشرين من شوال.

وكان السلطان قد قدم على الاسطول انسانا يقال له الفارس بدران، وكان ناهضاً جلداً في البحر، وكان رئيس البحريين يقال له عبد المحسن، وكان قد أكد الوصية في أخذ الحذر منهم، فغفلوا عن أنفسهم في الليل، فخرج اسطول الكفار من صور، فكبسهم، وأخذوا المقدمين، وأخذوا منهم خمس قطع وقتلوا قتلاً كثيراً من الاسطول الاسلامي، وذلك في السابع والعشرين من شوال، فلما علم السلطان ماتم على المسلمين ضاق صدره، وأشار بالرحيل ليأخذ العسكر جزءاً من الراحة ويستعدوا لهذا الامر استعدادا جديدا، فرحل عنها بعد أن رمى المنجنيقات وسيرها، وأحرق مالم يمكن نقله، وكان رحيله يوم الاحد ثاني ذي القعدة، ففرق العساكر وأعطاهم دستوراً، وسار كل قوم إلى بلادهم، وأقام هو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

وقال ابن كثير: ولما وصل السلطان إلى عكا نزل بقلعتها، وأسكن ولده الافضل برج الداوية، وولى نيابتها عز الدين جرديك، وقد أشار بعضهم

على السلطان بتخريب عكا خوفاً من عود الفرنج إليها، فكاد أن يفعل ولم يفعل فليته فعل، بل وكل بعمارتها وتجديد محاسنها بهاء الدين قراقوش التقوي(٢٣)، ووقف دار الاسبتار نصفين على الفقراء والفقهاء، وجعل دار الاسقف مارستاناً، ووقف على ذلك كله اوقافاً دارة، وولى نظر ذلك لقاضيها جمال الدين بن الشيخ أبي النجيب، وعاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً رحمه الله.

ذكر ماجرى بعد دخول السلطان دمشق:

ولما انفصل السلطان عن عكا وتوجه إلى دمشق جاءته رسل الملوك بالتهاني من سائر الاقطار والامصار بالتحف والهدايا.

وفي المرآة: وصل إلى السلطان من بغداد تاج الدين أبو بكر، أخو العماد الكاتب، فالتقاه السلطان وأكرمه، وكان معه رسالة تذكرة مشحونة بالعتاب على أسباب منها أن الخليفة عتبه لاجل ابن البوشنجي، ويلقب بالرشيد، وكان صبياً ببغداد ولايؤبه إليه، فخرج الى الشام واتصل بصلاح الدين، وقيل له: هذا من بيت كبير، وكان أديباً فأعجب السلطان، فسأله أن يبعثه الى بغداد في رسالته فبعثه إلى الخليفة، فقال: ماكان عنده غير هذا؟ وقصر في حقه، فلما عاد إلى السلطان تكلم بكلمات، وقال: ماالتفت إلي، ومنها إن كل من هرب من بغداد لجأ إلى السلطان يقبل عليه مثل رئيس الرؤساء وابن هبيرة، وابن أبي النجيب وأمثالهم، ومنها مشاركته في لقب الخليفة بالناصر، وأشياء من هذا الجنس، ثم قال في آخره: يمن علينا بفتح القدس، وهل فتحها إلا بعساكر الديوان وتحت راياته، فاستشاط السلطان غضباً، وقد كان يرجو أن يأتيه كتاب الخليفة يشكره على مافعل، ثم قال السلطان لأخي العماد: أما ابن البوشنجي فمن عندكم جاء، وقيل لي إنه من بيت كبير وصحبني وسألني انفاذه إلى بغداد ليمن على أهله، ويتجمل بكم، فما

أمكنني رد سؤاله، وأما الذين التجأوا إلي من أرباب البيوت، فإن الانسان قد يلتجىء إلى كوخ عجوز في البرية فتجيره من القتل، فأنا فعلت فعل العرب، وحفظت الذمام، وعرفت حق من قصدني ولجأ إليّ وصنتهم أيضاً عن ألسن الناس فيصير ذلك عاراً عليكم، وأما مشاركتي في اللقب فوالله إنني مااخترته ولااقترحته، ولكن لما أزلت دولة عدوه القائمة من مائتي سنة وكسر وفعلت مافعلت لقبني المستضيء بهذا اللقب، وكتب من بغداد إلى نور الدين بذلك، ولم يكن في زمانكم، ثم لو وقع هذا ففي عسكري عشرة آلاف تركماني وكردي لقب كل واحد صلاح الدين فلم أنكر عليه، وأما قوله إنني فتحت القدس تحت راياته وعسكره، فأين راياته وعسكره؟ والله مافتحت إلا بعسكري وتحت راياتي، وأرعد السلطان وأبرق، وتأكدت الوحشة بينه وبين الخليفة باطنيا، وأمسك السلطان نفسه ظاهريا، فكتب كتاباً إلى الخليفة يقول فيه: «المحاققة توجب المفارقة، واغلاق هذا الباب خير من فتحه، واندمال هذا الجرح خير وأولى من إتساعه وخرقة».

وقال السبط: وقد ذكر محمد بن القادسي قضية ابن البوشنجي، فقال: كان أمرداً في دروب بغداد، فطلعت لحيته فخرج إلى الشام، فخدم يوسف بن أيوب وسأله أن يرسل الى الديوان في رسالة فأرسله فقامت القيامة على الديوان، فلما عاد ابن البوشنجي الى الشام اكثر كلامه، فما مضى الا اسبوع حتى جاءته نشابة فذبحته، وكان ذلك عقوبة لما بسط به لسانه.

قلت: وهذه من هنات ابن القادسي، فإنه كان عالماً، يتعمد المثالب، وقد أساء الادب في مواضع منها قوله:

كان أمرداً في دروب بغداد، ومنها قوله على السلطان يوسف بن أيوب، وماذكره ببعض القابه، ومنها قوله: جاءته نشابة فذبحته، جعل

الشهادة في سبيل الله عقوبة، وهذه الواقعة في هذه السنة، وابن البوشنجي استشهد في سنة ست وثمانين وخمسمائة بعد أخذ الفرنج عكا من السلطان، ومن العجائب في هذه الواقعة أنني اجتمعت بشيخ دار الحديث المظفرية بالموصل في سنة خمس وستمائة، وجرت مذاكرة في غزوات صلاح الدين، فقال: حضرت معه في برج عكا، والفرنج قد أخذوا عكا، فبينما أنا قاعد في سوق العسكر، وإذا بشاب من أحسن الشباب قد جلس إلى جانبي، فذاكرته فوجدته فاضلاً فصيحاً من أهل بغداد من بيت البوشنجي، قلت فما اللقب؟ قال: يقبح بي أن ألقب نفسي، فأقسمت عليه فقال: يقال الرشيد، فقلت وماالذي جاء بك إلى هاهنا؟ فقال: سمعت أن السلطان يعرف مقدار اولاد الناس ويحسن إليهم، ورغبت أيضاً في الشهادة فأتيت إليه، فأحسن إليّ وأكرمني وأعطاني، ثم قال: أخاف ان تنقضي هذه الغزوات وماتحصل لي شهادة، فأسأل الله أن يرزقني الشهادة فقد تاقت نفسي إليها، قال: فدعوت الله أن يختار له مافيه الخيرة، ثم قلت: ياسيدي أنشدني شيئاً من شعرك فقال: نعم..... ثم قام من عندي باكياً وقصد الفرنج فاستشهد رحمه الله تعالى.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير محمود أخو جاولي:

استشهد في هذه السنة، وسبب ذلك أن السلطان وكله بحصن قلعة كوكب الذي على الغور وكانت فيها الاسبتارية، وقد كانوا تمنعوا لشدتهم ومنعتهم.

وكانت جبلة وأخذها في الثامن عشر من جمادى الاولى حال وصوله على مانذكره.

وقال العماد الكاتب: وأشرفنا على جبلة يوم الخميس الثامن عشر، وتسلمنا الحصن في ذلك اليوم، وأقام السلطان بها أياماً.

وفي النوادر: ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل السلطان على تل قبالة حصن الاكراد، ثم سير الملك الظاهر ولده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا على تيزين في هذا التاريخ، وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بالسلطان في هذه المنزلة، فأقام في منزلته هذه ربيع الآخر أجمع، وصعد في أثنائه إلى حصن الاكراد وحاصره يوما يجسه به، فما رأى الوقت يحتمل حصاره، واجتمعت العساكر من الجوانب، وأغار على بلد طرابلس في هذا الشهر دفعتين، ودخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر، وتقوية العساكر.

ولما كان يوم الجمعة الرابع من جمادى الاولى دخل على تعبئة للقاء العدو، ورتب الاطلاب، وسارت الميمنة اولا، وتقدمها عماد الدين زنكي، والقلب في الوسط، والميسرة في الاخير ومقدمها مظفر الدين بن زين الدين، وسار الثقل في وسط القلب حتى أتى المنزل، ثم رحل في صبيحة السبت ونزل على العريمة فلم يقاتلها ولم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يوم السبت، ورحل عنها يوم الاحد، ووصل إلى انطرطوس ضحوة نهار الاحد السادس من جمادى الاولى.

ذكر فتح انطرطوس:

ولما وصل انطرطوس في التاريخ المذكور، وقف قبالتها ينظر إليها، وكان في عزمه الاختيار، ثم اختار النزول، فأمر الميمنة والميسرة بالنزول على البحر من الجانبين، ونزل هو أيضاً في جانب آخر فأحدقت بها العساكر من البحر إلى البحر، وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان حصينان كالقلعتين، ثم أمر الناس بالزحف والقتال، وشدوا عليها

جداً، وما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور وأخذوها عنوة، وغنم العسكر جميع مافيها، وخرج الناس والاسرى بأيديهم وأموالهم، وترك الغلمان نصب الخيم واشتغلوا بالنهب والكسب ووفى السلطان بقوله، فإنه كان قد عرض عليه الغداء فقال: نتغدى بأنطرطوس إن شاء الله، وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً، ثم أمر بتخريب سور البلد، وتخريب بيعة عظيمة عندهم كانوا يحجون إليها من اقطار بلادهم، وأمر بوضع النار في البلد فأحرق جميعه، فأقام عليه إلى الرابع عشر من جمادى الاولى، ثم سار يريد جبلة، وكان وصوله إليها في الثامن عشر من جمادى الاولى يوم الجمعة.

ذكر فتح جبلة:

ولما وصل السلطان الى جبلة في التاريخ المذكور أخذ البلدة يوم وصوله، وكان فيها مسلمون مقيمون فيها، وقاض يحكم بينهم.

وفي المرآة: وكان قاضيها منصور بن بليل فأرسل الى السلطان يشير عليه بقصدها، وقيل إن القاضي والاعيان خرجوا إليه وهونوا عليه أمرها، وأخذ القاضي من السلطان امانا لاهل جبلة، وكان ابرنس انطاكية قد سلمها الى القاضي ووثق به في حفظها فنازلها وفتحها في التاريخ المذكور، وامتنع الحصن عليه يوما ثم سلموه اليه يوم السبت بالامان بعون الله وفضله وأقام عليها إلى الثالث والعشرين من الشهر المذكور ثم سار عنها يطلب اللاذقية.

ذكر فتح اللاذقية:

نزل السلطان عليها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الاولى وهي بلدة لها ميناء وقلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد فنزل رحمه الله محدقاً بالبلد، وأخذت العساكر منازلهم مستديرين على القلعتين من

جميع نـواحيها الا من نـاحية البلد، واشتد القتـال وعظم الزحـف وأخذوا البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمـة، فإنه كان بلد التجار وفـرق بين النـاس الليـل، وأصبحـوا يوم الجمعـة مقـابلين مجتهـديـن في النقوب من شمالي القلاع، وتمكن منها النقـب حتى بلغ طوله ستين ذراعاً وعرضه أربعة أذرع، واشتـد الزحف عليهم حتى صعدوا الجبـل وقاربوا السور، وتـواصل القتـال حتى صاروا يتحـاذفون بـالحجارة بـالايدي، فلما رأوا ذلك استغاثـوا وطلبوا الامان عشية الجمعة الخامـس عشر من الشهر المذكـور، وطلبوا قـاضي جبلـة فـدخل إليهـم ليقـرر لهم قـاعدة الامـان فـأجيبوا الى ذلـك، فدخـل القاضي وقـرر الحال معهم على أنهم يطلقـون بنفـوسهـم ونسـائهـم وذراريهم وأموالهم خـلا الغـلال والـذخـائر وآلات السلاح والدواب، وأطلق لهم السلطان دواب يركبـونها الى مأمنهم، ثم رقا عليهـا العلـم الاسلامـي المنصـور في بقيـة السبت السـادس عشر منـه، وأقاموا عليه إلى يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الاولى.

وقـال العماد رحمه اللـه: ولما رحل السلطـان مـن جبلـة اتى الـلاذقيـة وفتحهـا في الـرابـع والعشريـن مـن جمادى الاولى، وهـي ثـلاث قـلاع متلاصقات على طـول التل، فلما عرفوا انهم مدركون طلبـوا الامان وذلك يوم الجمعة الخامس والعشرين عشية، ودخـل جماعة منهم في عقد الذمة، وانتقل الباقون إلى انطـاكية، ثم رتب السلطان جماعة مـن خواص مماليكه وأخـرج من القـلاع أهـل الكفر وأسكنهـا أهـل التـوحيد وولى بها سنقـر الخلاطي مملوكه، ثم ركب السلطان الى البلـد وطافه، وكانت قلعتهم هذه منيعة عـالية مـرتفعة، ولماملـك صلاح الديـن الساحـل وهلك البـاطل، وافتتحت طبرية وأعمالها، تمنعـت من ذلك قلعتان: قلعة صفد بـالداوية، وقلعـة كوكـب بالاسبتـاريـة، وتعذر فتحهما، ورتـب السلطان على صفـد جماعة يعرفـون بالناصرية، ومقـدمهم مسعود الصلتي، ورتـب على كوكب هـذا محمود المذكـور، وكان دينـا صـالحاً مشكور السيرة، فـأقام بحصـن قريب مـن كوكب يقال له عفـر بلا، وكان يسهر اكثر ليلـه متهجداً، وقد

جعل منـزله مسجداً، فلما كـان آخر ليلة من شـوال، وكانت ليلـة مظلمة مـدلهمة خـرج أهـل كوكـب وقـت السحر، ومضـوا إليـه، والناس رقـود، والحراس هجود، فما أحس محمـود إلا وقد هجم الفرنـج عليهم، فجاءتهم الشهـادة، وبقـي الامير حتـى استشهـد محصوراً، وكـان أمـر اللـه قـدراً مقدوراً، ونقلـوا إلى القلعة ماوجدوه مـن سلاح ومتاع وخيـل وكراع، فلما عرف السلطان مـاأصابهم ندب الى كوكـب صارم الدين قـايماز النجمي فضايقها وحصرهـا، ولم يزل عليها مقيماً إلى ان يسر الله فتحهـا كما نذكره إن شاء الله تعالى.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو النـاصر لدين الله والسلطان صلاح الدين مقيم على عكا.

ذكر غزوات صلاح الدين وفتوحاته في هذه السنة:

وسـار السلطان مـن عكـا في المحرم، وحـاصر حصـن كـوكَب، فـرآه منيعـاً صعبـاً، ووقته مشغـول بغيره، فـوكـل به الامير قـايماز النجمـي في خمسمائة فارس يضيقون عليه المسـالك، وكذلك بصفد، وكانـت للداوية، خمسمائة فارس مع طغرل الجاندار، يمنعـون وصول الميرة والتقاوي، وبعث إلى الكرك والشوبك جيشـاً آخر يحاصرونهما ويضيقون على أهليهما ليفرغ مـن أموره لقتـال هـذه الاماكـن وحصارهـا، وسـار منها في ربيـع الاول ودخـل دمشـق ففـرح النـاس بـه، وكتـب إلى ملـوك الاطـراف بـاجتماع العساكر، وأقام في دمشق خمسة أيام ثم خرج على مانذكره.

وفي المرآة: وكـان الـذي أرسله صـلاح الـديـن إلى الكرك والشـوبـك صهره يقال له لوجيا.

وفي النوادر: ولما خرج السلطان نزل على بحيرة قدس غربي حمص، ووافته العساكر بها وأولهم عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار ونصيبين، ولما تكمل عسكره رحل ونزل تحت حصن الاكراد وشن الغارات على بلاد الافرنج، وسار من حصن الاكراد فنزل على انطرطوس سادس جمادى الاولى فوجد الفرنج قد أخلوا انطرطوس، فسار إلى مرقب فوجدهم قد أخلوها أيضاً، فسار الى صوب جبلة وهز إلى احسانها أعطافه، ثم رحل نحو صهيون.

ذكر فتح صهيون:

ولما سار السلطان راحلاً من اللاذقية نزل على صهيون يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من جمادى الاولى، واستدار العسكر بها من سائر نواحيها بكرة الاربعاء، ونصب عليها ستة مناجيق، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل، خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقدار طوله ستون ذراعا وهو نقر في صخر، ولها ثلاثة أسوار: سوران دون ربضها، وسور دون القلة، وكان على قلتها علم طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الاسلامي وقع.

قال صاحب النوادر: شاهدت ذلك حين وقع، فاستبشر المسلمون بذلك، وعلموا أنه النصر والفتح، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب، فضربها منجنيق ولده الملك الظاهر صاحب حلب، وكان قد لحقه قبيل فتح جبله بجحفله وعسكره، وحضر فتوحها، ولما كان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان على الزحف، وركب وتقدم وأمر المنجنيقات بتواتر الضربات، وما كان ساعة الا وقد رقا المسلمون على أسوار الربض، واشتد الزحف، وهجم المسلمون الربض، وانضم من كان فيه إلى القلعة، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة، فلما عاينوا الهلاك طلبوا الامان، فبذل لهم السلطان الامان على أن يسلموا بأنفسهم

وأموالهم، ويؤخذ من الرجل منهم عشر دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصغير دينارين، وسلمت القلعة، وأقام السلطان حتى تسلم قلاعا غيرها، وهي: بلاطنيس، وعيد، وقلعة الجماهير وغير ذلك .

وقال العماد: وكان تسلم عيد يوم السبت، وقلعة الجماهير يوم الاحد، وقلعة بلاطنيس يوم الاثنين، وقرر في كل حصن من تسلمه، ومامكنوا من الخروج حتى أحضروا ماقرر عليهم، وتولى جباية ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار.

وقال العماد: ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ماحواه من ذخائره وأمواله إلى الامير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين.

ذكر فتح بكاس:

ولما رحل السلطان من صهيون ثالث جمادى الآخرة وصل الى قلعة بكاس سادس جمادى الآخرة وهي قلعة حصينة على جانب العاصي، ولها نهر يخرج من تحتها، ونزل السلطان على العاصي.

قال النويري: تسلمها يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور، وكان أهلها اخلوها قبل وصول السلطان وتحصنوا بقلعة شغر.

وفي النوادر: صعد السلطان جريدة الى القلعة، وهي على جبل مطل على العاصي، فأحدق بها من كل جانب، وقاتلها قتالا شديداً بالمنجنيقات والزحف الى يوم الجمعة، ثم يسر الله فتحها عنوة، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم، وغنم جميع ماكان فيها،

ذكر فتح شغر

ولما تحصنت الفرنج بقلعة شغر، وهي قلعة شامخة منيفة، خيم السلطان بخيمة خفيفة الى الجبل لحصار القلعة فحاصرها في الثالث عشر من جمادى الآخرة يوم الثلاثاء، ثم سلم السلطان حصن بكاس وحصن شغر الى غرس الدين قلج الساقي.

وفي النوادر: وكان لبكاس قليعة تسمى الشغر قريباً منها، يعبر اليها بجسر، وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق، فسلطت عليها المنجنيقات من الجوانب، ورأوا أنهم لاناصر لهم، فطلبوا الامان، وذلك في يوم الثلاثاء، وسألوا ان يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بأنطاكية، فأذن السلطان في ذلك، وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قلتها يوم الجمعة السادس عشر منه، بعون الله تعالى وفضله.

ذكر فتح سرمانية:

ولما فتح السلطان حصن شغر، أرسل ولده الملك الظاهر صاحب حلب، فحاصر سرمانية وأخذها بالامان، وهدم الحصن وعفى أثره.

وفي النوادر: أرسل صلاح الدين ولده المذكور الى قلعة تسمى سرمانية، يوم السبت سابع عشر جمادى الآخرة فقاتلها قتالاً شديداً، وضايقها مضايقة عظيمة، وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر المذكور، فاتفقت فتوحات الساحل من جبلة الى سرمانية في أيام الجمع، وهي علامة قبول دعاء خطباء المسلمين، وسعادة السلطان رحمة الله عليه حيث يسر له الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات، وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية، ولم يتفق مثلها في تاريخ، وكان في هذه الحصون المذكورة من أسرى المسلمين عدد لايحصى، فأطلقوا وأعطوا النفقة والكسوة.